روايات الجيل الرومانسية

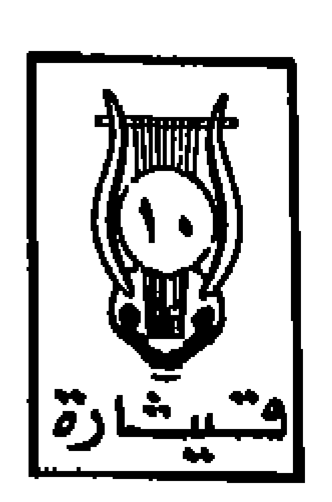
قيثارة

السر المجهول

تأليف
مجدي صابر



السِرُّ المجهُول



روايات الجيل الرومانسيَّة



تأليف
مجدي صابر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

« العودة إلى الوطن »

حلقت الطائرة العملاقة فوق مطار « القاهرة » الدولي في دورة واسعة، وهي تستعد للهبوط، ومن أسفل بدت الأضواء المتناثرة في بنايات وواجهات العاصمة، كنجوم رصت دون ترتيب في عناقيد متلألئة..

مال محسن إلى رفيقته الجالسة بجـواره فـي الطائـرة وهمس لها بالإنجليزية في شجن : ما رأيك في هذا المشهد الذي تَرَيْنَهُ بأسفل.. إن « القاهرة » في الليل تبدو رائعـة كحسناء بلا عيب .. وأنا أعشق ليلها.

فهمست تلك الفتاة الشقراء الأجنبية الموردة الوجـه الساحرة العينين، وقالت وكأنها تتلو قصيدة عشق : أنا أيضاً يا محبوبي أعشق كل ما تعشقه .. وأذوب في كل ما يسحرك .. أنا ظلك وتابعك.

فتأملها محسن في شوق بالغ وعيناه تجوسان في ملامحها ومعالمها .. لايكاد يصدق حتى تلك اللحظة أن « ليزا » تلك الأمريكية الفاتنة التي تنتظرها ملايين لا حصر لها، يملكها والدها، قد تركت ذلك كله بمحض إرادتها ورغبتها، وها هي تهاجر من موطنها وتقتلع جذورها من عائلتها وأصدقائها، لتلقي بها في أرض أخرى مجهولة، فقط من أجله هو.

رمت « ليزا » برأسها فوق كتفه فتناثر شعرها الأصفر الذهبي خلف ظهرها في خيلاء طاووس، وعادت تهمس له : لم أكن أظن انني سأحب رجلا بهذا القدر، فأترك كل ما في الدنيا خلفي وأتبعه.

قال بعدها : لن تندمي أبداً.

هتفت في ثقة : أنا لا أندم على شيء أفعله أبداً .. وخاصة معك أيها الشرقي الوسيم.

ورنت ضحكتها عالية صاخبة تعبر عن مدى سعادتها .. وهي تتشبث بأصابعها في ذراعه كأنها تخشى أن يأخذه منها شيء ما.

درجت الطائرة فوق أرض المطار .. وأحس محسن كأن ذاته التائهة تعود إلى مستقرها.

السنوات تمضي في سرعة عجيبة لا تكاد تُصدق .. ففي حينها تبدو أيام الشقاء وكأنها دهور من التعاسة. ولكن بعد أن يطويها الزمن، تبدو كأنها مرت في لحظة خاطفة. عندما غادر « مصر » منذ ثلاث سنوات، في رحلة مجهولة إلى أمريكا، كان مقدّراً لنفسه أن يمضي بها بضعة أشهر أو عاماً على الأكثر. يدخر فيها ما يمكّنُه من بدء حياته عند العودة إلى مصر. أقصى أمانيه كانت حصوله على ثمن شقة يتزوج فيها.

يتزوج أماني ..

حبه الأول. ولكن ليس الأخير. إنه لا يدري ماذا كان يمكن أن يحدث له لو أنه لم يقابل « ليزا » ويحبها. وتقع هي في حبه بنفس القدر.

كانت أماني جارته .. تسكن في الشقة المقابلة له .. وكان يكبرها بثلاثة أعوام .. تفتحت زهور مراهقته على شمس حبه لها.

كانت بيضاء بضة لها وجه مستدير وخدان موردان وعينان عسليتان صافيتان، وشعر أسود فاحم. وكان قوامها رائعا وصوتها عذبا. لم يتصور حياته بدونها لحظة واحدة. ولأجله فقد رفضت خطّابا كثيرين تقدموا إليها وهي لا تزال على أعتاب المراهقة .. وقد جذبهم إليها جمالها واكتمال أنوثتها.

كان الجميع يحترمون حبهما ويباركون الزواج المقبل. ولكن بعد أن أنهى دراسته لم يكن يملك شيئا يبدأ به حياته بأقل الأحلام والإمكانيات .. وعندما استطاع الحصول على تأشيرة سياحية لأمريكا أحس أنه حصل على تأشيرة لدخول الجنة. جواز مروره إلى العالم السحري الذي تتحقق فيه كل الأحلام في سهولة عجيبة.

وودع محبوبته وسافر. خاتمه في اصبعها وخاتمها في اصبعه. تعاهدا على الانتظار والوفاء. وصار يرسل إليها خطابا كل أسبوعين، يخبرها عن عالمه الجديد الغريب المدهش، وعن اشتياقه لها وإحساسه بالوحدة .. وكانت ترسل إليه تقول أنها في انتظاره تحسب الدقائق والساعات

والأيام .. وأنها بدونه لا يهنأ لها طعام أو شراب .. تنظر إلى الطريق من نافذتها كل ليلة، كأنها تنتظر عودته كل لحظة.

وأرسل إليها يقول أن الجنة لم تكن كما تخيلها في البداية .. فالحياة قاسية شاقة والعمل نادر، وهو بدون أوراق إقامة أو عمل مثل غريق في بحر عاصف.

ومع الوقت قلَّت خطاباته لها.. كاد يصيبه اليأس من قلة العمل والمال واستحالة تحقيق حلمه .. وكانت هي تشجعه وتخبره أنها ستنتظره مهما طال الغياب.

ولكن فجأة انقطعت خطاباتها .. وعرف من أسرته أنها تزوجت وانتقلت للإقامة في مسكن زوجها الفاخر على النيل .. تزوجت المال الذي تغرّب لأجله، وسافر ليأتي لها به. وزلزلته الصدمة .. لم يكن يتصور لحظة واحدة، خيانتها لحبه وارتباطها برجل آخر. وكادت الصدمة تدفعه إلى العودة كهشيم إنسان ميت الأحلام .. لولا أن صادف « ليزا » فانتشلته من يأسه دون أن تدري بقصة حبه الأولى. وحاول محسن أن يداوي جراح حبه القديم

بحب جديد دون أن يدري على وجه اليقين، هل برأت جراحه القديمة أم لا.

همست « ليزا » تسأله وهي تراقب شروده: بماذا تفكر ؟.

أجابها باسما : لا شيء .. فقط أحاول أن أتخيل كيف ستبدو الأشياء أمام عيني مرة أخرى بعد ثلاث سنوات كاملة من الغربة.

لمح ظلالا من الأسى والضيق في عينيها الجميلتين، كادتا تغرقان بالدموع وهي تقول له : كيف تقول أنك كنت في غربة وقد كنت معك ؟.

أجابها مرتبكا : لم أعرفك إلا في العام الأخير.

قالت متألمة : كنت أظن أن هذا العام جعلك تنسى كل آلامك وغربتك .. إن عاما من السعادة الحقيقية قادر على أن يُنسي الإنسان مائة عام من الأحزان.

أجابها مهّوناً : إحساسي بالغربة كان تجاه وطني وأسرتي.

قالت بألم أشد وهي تعض شفتيها : ظننت أنني صرت وطنك وأسرتك وكل عالمك.

لم يجد ما يرد عليها به .. يعرف أنها تحبه إلى درجة لا يصدقها هو نفسه. وإلا ما تبعته إلى آخر العالم .. عالمه هو !.

ضغط على أطراف اصابعها الرقيقة معتذرا وهو يقول : سامحيني .. لم أكن أقصد جرح مشاعرك .. أعترف لك بأنني لولاك لكنت ضائعا في بلادك .. أنت أعدت لي الأمان والاستقرار، كنت قبلك زورقاً يُبحر تحت رحمة الأنواء دون أن يعثر على المرفأ .. وكنت أنت منارة الشاطئ الأمين التي رسوت إليها بعد طول ترحال.

أشرق وجهها بسعادة متألقة .. والدموع في عينيها بدت كزخات مطر تغسل الأحزان، ووجهها كأنما أشرقت عليه شمس بعد طول غمام.

وأنهيا إجراءاتهما الجمركية سريعا.

وفي الخارج كانت أخته سمية بانتظاره. يا الله. لكم

كبرت وصار شكلها كزوجة حقيقية وأم. على عكس ما تركها عروساً لا تزال في شهر العسل.

إندفع إليها يحتضنها ويعانقها .. في عينيه دموع شوق .. تصغره سمية بعامين ولكنه لرجاحة عقلها وتفكيرها كان يعتبرها أخته الكبيرة.

تركها عروسا وعاد ليجد معها طفلاً في الثانية من عمره .. وزوجها بكري قد ترك الزواج آثاره عليه فبدا أقل وسامة واعتناء بهندامه.

وهتفت سمية في طفلها : هيا يا عادل .. صافح خالك.

فتقدم الطفل في تردد وهو يتفحص محسن، فرفعه الأخير بين يديه وراح يقبله في سعادة قائلاً : لقد صار لي أبناء أخت وأصبحت خالاً.. لا أكاد أصدق ذلك.

وصافح زوج أخته بقوة يسأله عن حاله، مط بكري شفتيه قائلاً : كما ترى .. صرت زوجا وأبا .. مثل ملايين البشر.

وتحسست سمية أخاها في شوق بالغ قائلة : كيف حالك يا أخي .. لقد تغيرت كثيرا .. صرت أنحف وظهرت

شعيرات بيضاء في فوديك .. أوحشتنا .. كيف طاوعك قلبك على الغياب كل هذه السنين عنا ؟.

أجابها في تأثر : أنتم أيضا أوحشتموني .. كيف حال أمي ؟.

ـــ بخير صحتها لم تعد تحتمل المجهود لذلك طلبنا منها ألا تجهد نفسها بالمجيء معنا في هذا الوقت المتأخر.

تنبهت سمية لتلك الشقراء الفاتنة زرقاء العينين كلون سماء أجنبية مجهولة الأسرار .. وقال محسن ضاحكا : أقدم لكم « ليزا » .. خطيبتي.

شهقت سمية من المفاجأة قائلة : خطيبتك .. لم تخبرنا عنها من قبل أبداً في خطاباتك.

قال محسن مرتبكاً : لقد خطبنا منذ وقت قليل .. وأردت أن أجعلها مفاجأة لكم .. إننا ننوي الزواج والاستقرار في « مصر » .

اندفع بكري نحو ليزا مصافحا في قوة بإنجليزية متعثرة قائلاً : أهلاً بك.

جاوبته « ليزا » بكلمة شكر. وتأملتها سمية لحظة في تقطيب. ثم مدت يدها مترددة لتصافحها والدهشة لا تزال مرتسمة في عينيها.

وقال بكري في فخر : والآن هيا إلى سيارتي .. لقد صرت أمتلك سيارة رائعة مثل الأثرياء.

قال محسن ضاحكا : يبدو أنك تكسب الكثير.

فأجاب بكري : لقد صار كسب المال في « مصر » يعتمد على الذكاء والفهلوة قبل الشهادات.

واخترقت السيارة ميدان « السيدة زينب » مارة بجامعها الشهير وواصلت سيرها ثم انحرفت يسارا داخل شارع ضيق وتوقفت أمام أحد منازله.

والتفت محسن إلى « ليزا » قائلاً : لقد وصلنا .. وها هو ذا منزلنا الذي حدثتك عنه.

غادر الجميع السيارة « وليزا » تَرمق المنزل في شيء من الدهشة .. ثم تفحصت عيناها بقية منازل الشارع الضيق الغارق في الظلام إلا من ضوء هزيل في مدخل الشارع، وعدد من الكلاب الضالة قد استرخت أمام أبواب منازل

الشارع المتهالكة تتثاءب وهي ترمق القادمين في عدم اكتراث.. والفجر يوشك أن يلقى بضيائه ليبدد عتمة الليل، كاشفاً عن بعض الأقذار وبقايا القمامة هنا وهناك.

وقالت سمية لأخيها : لم نشأ إخبار الجيران بمجيئك الليلة حتى لا نتعب أحدهم في السهر حتى هذا الوقت المتأخر ليكونوا في انتظارك أو استقبالك.

وانشغل بكري في إنزال الحقائب من فوق السيارة .. وراح محسن يتأمل هيكل منزله في صمت، وانفلت السؤال من شفتيه رغماً منه : كيف حال أماني .. هل تعرفين شيئاً عنها ؟.

« ذكرى مؤلمة »

ورمقته أخته مقطّبة غاضبة .. حاولت أن تبدو بمظهر الحياد وهي تجيبه : كنت أظن أنك نسيتها.

أجاب ولهاث حارق يتصاعد إلى صدره : أريد أن أعرف لماذا تزوجت بآخر ولم تنتظرني.

قال بكري مدافعا : أنت غبت سنوات .. وهي فتاة لا تحتمل الانتظار طويلاً.

أجابه محسن في حدة: كان يمكنها أن تطلب مني العودة على الأقل فنتزوج مهما كانت إمكانياتي قليلة .. إنني لم أتغرّب إلا بسببها.

رمقته « ليزا » بنظرة صامتة دون أن تفهم سبب النقاش بينهم .. ونظرت إليه أخته لائمة وقالت : لو كانت تحبك

حبا حقيقيا ما ارتبطت بغيرك أبداً .. لقد فوجئنا بعد وفاة أبيها بقليل وهي تتزوج دون ضجيج وتنتقل إلى مسكن زوجها الفاخر .. ومن وقتها لم نرها بعد ذلك .. وقبعت أمها في شقتها لا تخرج منها إلا نادراً .. ومن جانبنا فقد قاطعت أمي أمها.. ولكنك الآن قد عدت بعروس فاتنة لتكيد الجميع.

هز محسن رأسه في صمت .. وحمل الحقائب مع الباقين متجهين إلى مدخل المنزل القديم وهو يتساءل في ألم: هل حقاً عاد ليكيد الجميع.. أم لأنه لم يكن أمامه غير طريق العودة، برغم كل الجراح ؟.

وتنبه على شيء فصاح في « ليزا » وهما يصعدان السلالم : حاذري .. فهناك بضعة سلالم مكسورة منذ سفري لا أظن أن أحداً قد أصلحها حتى الآن.

فسألته في دهشة : ولماذا لم يفكر أحد في إصلاحها كل هذه السنوات ؟.

هز كتفيه في حيرة، وقال زوج الأخت بإنجليزيته المتكسرة : سوف نصلحها قريبا .. إن شاء الله.

فرددت « ليزا » خلفه باسمة : إن شاء الله.

واستقبلت الأم ابنها العائد في مدخل الشقة والدموع في عينيها.. فاحتضنها وهو يجهش بالبكاء كطفل صغير. وقالت الأم معاتبة تمسح دموعها : قلت أنك ستغيب عاما على الأكثر .. فكيف طاوعك قلبك على الغياب كل هذه السنوات ؟.

فأجابها محسن ومرارة الأحزان تتدفق إلى قلبه : لم يكن ممكنا أن أعود بلا مال يا أمي .. إنك لا تتصورين الشقاء والآلام التي عشت فيها قبل أن أقابل « ليزا » .. لولاها ربما لم أفكر في العودة أبداً لمصر.

ومالت سمية على أذن أمها تهمس لها بشيء وهي تشير نحو « ليزا » .. فحدّقت الأم العجوز بنظرها الضعيف في تلك الشقراء الفاتنة الواقفة في صمت وابتسام تراقب ما حولها.

وفتحت الأم ذراعيها هاتفة في شوق : تعالَي إلى ذراعيّ يا ابنتي.

ولم تكن « ليزا » بحاجة إلى من يترجم لها الكلمات

الحارة الصادرة من القلب، فاندفعت نحو الذراعين المفتوحتين تعانقهما وتقبل صاحبتهما.

ونطقت « ليزا » ببضع كلمات فنظرت الأم إلى ابنها حائرة، فأجابها باسما : إنها تقول لك أنك ستصيرين أمها منذ تلك اللحظة.

فأشرق وجه الأم بالضياء وهتفت وهي تعاود احتضان « ليزا » : وهي ستكون مثل ابنتي تماماً .. لأنها أحبت ابني الغالي.

نهضت « ليزا » وهي تقول لمحسن : أريد أن اغيّر ملابسي.

فالتفت إلى أخته قائلاً : خذي « ليزا » إلى حجرة الضيوف لتغير ملابسها.

نهضت الأخت باسمة وحملت « ليزا » حقيبة ملابسها إلى حجرة الضيوف، وسألت الأم ابنها : متى ستتزوجان ؟.

ــ اتفقنا أنا و« ليزا » أن نتزوج بعد شهرين .. فهي تريد أن تتأقلم مع الحياة هنا أولاً.

ــ ولكن .. أين ستقيم خطيبتك خلال هذه المدة ؟.

ــ هنا.

هتفت الأم مستنكرة : ماذا تقول يا ولدي .. إنها بالنسبة لك لا تزال غريبة فكيف تقيم معك في بيت واحد دون زواج .. ماذا سيقول الجيران والمعارف ؟.

أجابها في بساطة : هذا أمر عادي فما الذي سيُدهش الجيران أو المعارف في ذلك، وما دخلهم بنا ؟.

قالت الأم لائمة : يبدو أنك نسيت تقاليدنا وعاداتنا.

مرت لحظة صمت ثم قال محسن : سوف نبحث هذا الأمر غداً .. إنني متعب والوقت غير مناسب الآن لمثل هذا النقاش.

وابتلع بكري لعابه وهو يقول : ولكن كيف عثرت على هذه الحورية يا محسن وجعلتها تحبك ؟.

قطب محسن حاجبيه قائلاً في استياء : لا أحد يجعل أحداً يُحبه رغماً عنه .. لقد أحببت « ليزا » وأحبتني هي بنفس القدر وربما أكثر .. كنت أعمل في أحد المطاعم،

وكنت مهدداً بالطرد لأنني لا أحمل أوراق إقامة أو عمل .. وكان هذا هو حالي خلال شهور طويلة لم أدخر فيها شيئاً لأنني كنت أعمل يوماً وأتبطل يومين، وذات يوم داهم رجال الشرطة المطعم للقبض على من يعملون دون تصريح، فهربت من المكان تاركاً نقودي وبقية أجري وحتى ملابسي .. وشاء حظي أن أشاهد فتاة حسناء في مأزق فأنقذتها منه بالرغم من إنني خضت في سبيل ذلك صراعا مع أربعة من مجرمي نيويورك الخطرين، ولا أدري من أين استمددت تلك الشجاعة في مهاجمتهم وقتالهم وإنقاذ تلك الفتاة من أيديهم.

بكري : وهذه الفتاة هي ليزا خطيبتك .. أليس كذلك ؟.

محسن : نعم هي.

هتف بكري لاهثا : وماذ حدث بعد ذلك ؟.

محسن : بعد إنقاذي لها عرفت « ليزا » بمشكلتي فعرضت علي أن أعمل لدى والدها .. واكتشفت أنه يدير عدة شركات ومحلات « سوبر ماركت » وأنه يمتلك الملايين، وبسبب « ليزا » عينني والدها في إحدى شركاته

بمرتب محترم واستطاع أن يحصل لي على أوراق إقامة سليمة.

مسح بكري شفتيه بظهر يده وهتف بمحسن: يا لها من صفقة زواج رائعة .. حسناء فاتنة يمتلك أبوها الملايين، فأي حظ أفضل من ذلك ؟.

هتف محسن غاضباً : كيف تقول ذلك .. أنا لم أحب « ليزا » لأجل ملايينها.

هز بكري كتفيه قائلا : ولكنك ستحصل على هذه الملايين على أي حال عندما تتزوجها.

أجابه محسن في استياء: لا.. أنت واهم.. فعندما علم والد « ليزا » برغبتها في الزواج مني طردني من شركته وهددها بحرمانها من ميراثه وخاصة إنها ابنته الوحيدة.. ولكننا لم نأبه بذلك وقررنا أن نعود لمصر ونبدأ حياتنا فيها. غمغم بكري ذاهلاً : ماذا تقول .. هل أنت مجنون .. كيف تترك كل هذه الملايين، وتأتي إلى مصر خاوي الوفاض .. كان بإمكانك مساومته والحصول على بعض المال منه و...

قاطعه محسن غاضبا : ماذا تقول .. إنني لن أتزوج « ليزا » بسبب مال أبيها.

قال بكري معترضا : ولكن المال لن يضيرك في شيء، وأنت أول من يعرف قيمته.

أجابه محسن في لهجة حاسمة : وأنا لن أتسول للحصول عليه .. لقد ظن الأب أنني تدخلت لانقاذ ابنته طمعا في مالها ولذلك رفض زواجي منها، فأردت أن أثبت له أن هدفي لم يكن المال على الإطلاق، ولذلك اتفقت مع « ليزا » على المجيء الى مصر والزواج.

قالت الأم : بارك الله فيك يا ولدي .. إن ما فعلته هو عين الصواب .. فالرجل الذي يتزوج امرأة لمالها هو رجل ناقص الرجولة .. تماما مثل المرأة التي تتزوج رجلاً لأجل ماله .. فهي امرأة بلا أصل.

غمغم بكري في ارتباك : أنا لم أقصد ما قلته .. ولكن محسن لا يعرف كيف أصبحت الحياة في مصر شاقة وغالية .. إنه في حاجة لمال كثير ليبدأ حياة كريمة هنا.

محسن : لقد عدت بمبلغ لا بأس به سيتيح لي شراء

شقة نعيش فيها أنا و « ليزا » وإنشاء شركة صغيرة للاستيراد والتصدير .. يكفي أنها تحبني وأنني أحبها بنفس القدر.

تثاءب بكري قائلاً : لكل إنسان أن يختار الحياة التي تروق له .. وأن يظن ما شاء له الظن أن الحب يعوّض نقص المال.

ورمق محسن بنظرة لا تخلو من سخرية واضحة ثم اتجه إلى حجرة الصالون التي فُرشت أرضيتها ببعض المراتب الأسفنجية لتصلح كمكان للنوم.

وداهمت محسن مشاعر انقبض لها قلبه وعاودته الذكرى تهاجم مشاعره في عنف وهو يتطلع إلى شباك الصالة المفتوح المطل على النافذة المغلقة لحجرة محبوبته السابقة .. وقد بدا من الأتربة فوق النافذة المغلقة أنها لم تُفتح منذ زمن.

ولم يجرؤ محسن على الالتفات نحو أمه .. وسألها ووجهه مقطب منكس للأرض : كيف مات والد أماني ؟.

بدا وكأن الأم كانت تتوقع السؤال .. لم يكن في صوتها لهجة غضب أو تأنيب وهي تجيب : لقد مرض

مرضا طويلا .. وباع دكانه الصغير للإنفاق على مرضه وأسرته .. مات أخيراً .. ولم تكد تمضي أسابيع حتى رأينا أماني تنتقل إلى مسكن زوجها الثري.

رفع محسن عينين مطعونتين إلى أمه مليئتين بالجراح والآلام، فأشاحت الأم بوجهها غاضبة وهي تكمل : إنها حتى لم تنتظر مرور شهرين على وفاة أبيها لتتزوج .. هذه الغادرة ظهرت على حقيقتها .. لا شك أنها كانت تحب هذا الشاب واتفقت معه على الزواج دون أن يدري أحد .. ولم يعطلها حتى وفاة أبيها.

ـــ وزوجها هذا .. هل تعرفونه ؟.

أجابت الأم ساخرة : لن تصدق من يكون .. إنه عباس الذي كان يعمل في محل أبيها شبه خادم.

هتف محسن ذاهلا : عباس .. مستحيل .. هذا الشاب الفقير العاطل عن العمل أو الوسامة والمال.

قاطعته الأم بصوت يفور بالغضب : لقد صار له مال كثير فجأة دون أن يدري أحد من أين أتى به .. ولأجل هذا المال تزوجته أماني .. دون أي اعتبار لأنه كان يوما

خادماً لوالدها .. وأنه كان شاباً مشرداً لا أهل له ولا عمل لولا والدها .. ولكن للمال سحر على بعض ضعاف النفوس .. والحمد لله أن حقيقة تلك الفتاة قد انكشفت قبل زواجك منها .. لقد كان ما حدث خيراً لك يا ولدي فاحمد الله كثيراً، وحاول أن تنسى هذه الفتاة كما نسيتك .. وتذكر خطيبتك الجميلة التي ضحت بسببك بأهلها ووطنها.

فأدار محسن وجهه للناحية الأخرى، حتى لا تلمح أمه في عينيه تلك الدموع التي ترقرقت وقد أهاجتها الذكرى والخديعة.

دموع ندم وثورة غضب فوارة، ضد من تفتح قلبه على حبها.

ولكن الأم لمحت الدموع، فرأت فيها نذير شؤم، وطاف هاجس في قلبها، بأن الأمور لن تستقر أبداً، وأن تلك الأجنبية الحسناء لن تكون أبدا الشاطئ الذي يرسو إليه زورق ابنها.

« فارس من الشرق »

في الصباح قالت « ليزا » في دهشة بالغة : ماذا يعنيني أنا من كلام الجيران .. كل إنسان حر فيما يفعله فماذا يضايقهم إن أقمت هنا مع خطيبي أو أقمت في مكان آخر ؟.

محسن : إنها تقاليدنا و ..

قاطعته « ليزا » قائلة : أنا لا تعنيني مثل هذه الأشياء .. ما دام الإنسان لا يُخطئ فليس على الآخرين محاسبته أو التعلل بتقاليد بلهاء ليفرضوا عليه ما يرغبون من تصرفات.

ورنت إلى محسن بعينين تفيضان بالأسى قائلة : كيف تطلب مني أن أقيم بعيداً عنك، وأنا التي قطعت نصف العالم خلفك حتى لا تبتعد عني لحظة واحدة ؟.

فشحب وجه محسن ولم يدر ما يجاوب به .. كان دائماً ضعيفاً أمام منطقها الذي تصيغه ببساطة مدهشة.

وسألت الأم ابنها : ماذا قالت لك يا ابني ؟.

أجاب محسن مرتبكا : إنها لا ترغب في مفارقتنا يا أمي أو الإقامة في مكان آخر.

الأم : هذا ما توقعته ولذلك طلبت من أختك وزوجها أن يبقيا معنا إلى أن تتزوجا وتنتقلا إلى شقتكما، وستأتي أختك مع زوجها وطفلها في المساء .. وبذلك لن يعيب أحد من الجيران مسلكنا.

أشرق وجه محسن وقال: إنه حل رائع.. كيف غاب عن بالي ؟.

قالت الأم باسمة : للكبار دائما حلولهم الصائبة.

وذهبت لتجهز الإفطار، ولمح محسن ظلالا من الإرهاق في عيني « ليزا » فسألها : هل نمت جيداً أمس في حجرتك ؟.

أجابته في إرهاق : وهل تسمى مثل ذلك المكان الذي نمت به حجرة نوم .. إنها ضيقة جدا وقد شعرت أنني أختنق فيها، فكيف تعيشون في مثل تلك الأماكن الضيقة، هذا بالإضافة إلى الكلاب في الأسفل والتي ظلت تنبح طوال

الليل دون انقطاع .. لماذا تبيت تلك الكلاب خارج بيوت أصحابها ؟.

محسن: لا أصحاب لها.

تساءلت « ليزا » في دهشة بالغة : أتعني أنها كلاب ضالة بمثل هذا العدد .. ولكنها كلاب ضارة، وقد تكون مسعورة ومن المؤكد أنها تحمل أمراضاً عديدة .. فكيف تتركونها تعيش معكم في نفس المكان ؟.

أجابها محسن في بساطة : لقد اعتدنا على ذلك.

هتفت مستنكرة : اعتدتم أن تعيشوا مع الكلاب في مكان واحد ؟.

هز محسن كتفيه في حيرة، ولم يجد ما يرد به، كانت « ليزا » على حق في تساؤلها، وبدت له أشياء كثيرة خاطئة قد اعتادها قومه دون أن يفكروا لحظة في تغييرها. وجاءت الأم بعد لحظات تحمل أطباق الطعام، فرمقتها « ليزا » في دهشة وقالت : هل تأكلون كل هذه الأصناف في الإفطار ؟.

محسن : هذا هو ما اعتدنا عليه .. تذكري أنك هنا لست في « أمريكا » .

فرمقته « ليزا » بنظرة عتاب صامتة ثم قالت : سأكتفي بقطعة بسكويت ومربى .. فهذا هو ما اعتدت عليه ولن أغيره لأي سبب.

محسن : لا أحد يطالبك بتغيير طعامك.

ونهض وأحضر بعض البسكويت والمربى، وراقبت الأم « ليزا » وهي تتناول إفطارها دون أن تعلق. وبعد الإفطار قالت الأم لابنها : إسأل خطيبتك إن كانت ترغب في تناول الشاي أم لا ؟.

وسأل محسن « ليزا ». واستمع إلى إجابتها ثم .قال لأمه متحيرا : إنها ترغب بالفعل في شرب الشاي ولكنها تريده مجهزاً من مياه معدنية.

الأم : وما عيب ماء الصنبور ؟.

محسن : إنها تقول أنه يسبب نزلة معوية كما أخبرها بعض أصدقائها قبل سفرها.

تجهم وجه الأم وقالت : إذا كان هذا صحيحا فلماذا لم نصب نحن بالنزلات المعوية ؟.

هتف محسن في رجاء : أرجوك يا أمي .. لا تنسي أنها قادمة من بلد آخر مختلف في كل شيء عنا .. ومع الوقت ستعتاد « ليزا » على حياتنا وستنسى حياتها الأولى .. وأنا نفسي صدمتني أشياء كثيرة في « أمريكا » ولكنني اعتدت عليها بمضي الوقت.

قالت الأم في تسليم : كما تشاء يا أبني.

وارتدى محسن ملابسه وغادر المكان، وعاد بعد ساعة كاملة يحمل زجاجة مياه معدنية وهو يقول ساخطا : لا أحد في الحي يبيع تلك المياه المعدنية فاضطررت لشرائها من حي آخر بعيد.

ونهضت الأم لتجهز الشاي، فحدقت « ليزا » في محسن وعيناها تعكسان فيضا من مشاعرها، وهمست تسأله : هل ضايقتك تصرفاتي ؟.

أجابها في صدق : إطلاقاً فأنا أقدّر مشاعرك، ولكني

أرجو أن تعتادي على حياتنا ومع مرور الوقت لن يكون هناك مجال للشكوى.

وأمسك أصابعها وقال بمشاعر فياضة : يكفيني أنك تركت وطنك وأسرتك من أجلي .. إن هذا كاف لأن يجعلني أدرك مقدار التضحية التي قمت بها فأبذل نفسي لأجلك طوال عمري، ومهما فعلت فلن تضايقني تصرفاتك أبداً.

وحدق في وجهها الفاتن وأكمل قائلاً : لطالما أردت أن أسألك لماذا أحببتني أنا بالذات، وقد كان أمامك المئات والآلاف من الشبان أبناء وطنك ممن يناسبونك ثروة ومركزا اجتماعيا، فلا يضطرك الارتباط بشخص غريب إلى ارتياد المجهول.

فهمست تقول له وهي تطوقه بعينيها الفاتنتين : آه أيها الشرقي الوسيم .. إن الحب لا أسباب له فهو هبة إلهية يعجز عن تفسير أسبابها عقلنا البشري المحدود .. ولكني برغم ذلك لدّي أسباب عديدة لحبي لك.

سألها في لهفة : وما هي ؟.

أجابته بابتسامة رائعة : إنها أولاً وسامتك .. فأنت أكثر الرجال الذين قابلتهم في حياتي وسامة.

قال في صدق : بالعكس .. هناك الكثيرون ممن هم أكثر وسامة مني مئات المرات .. أولا ذلك الشاب مدير أعمال والدك، والآخر محاميه الخاص و ..

قاطعته « ليزا » قائلة : الوسامة ليست ملامح جميلة فقط .. الوسامة رجولة أولاً .. وهؤلاء الشبان الذين تتحدث عنهم مجرد تماثيل خزفية جميلة بلا روح تتحطم عند الطَّرق عليها .. ومعك أنت كانت وسامتك في نظري هي رجولتك .. كفاحك وشقاؤك وإصرارك على تحدي الفشل .. الرجولة هي أن يصنع الإنسان ما يريده هو لا ما يريد الآخرون أن يصنعوه به .. هذا هو تفسيري للرجولة والوسامة.

وعادت تتأمله ونظراتها تدغدغ وجنتيه مكملة : أيضا ما جذبني فيك ذلك السحر الغامض الذي يحيط بك.

سألها مندهشا : أي سحر ؟.

ــ سحر الشرق وفتنته.

ـــ هناك شرقيون كثيرون كانوا يحيطون بك غيري .. ومئات منهم يعملون لدى والدك.

هزت رأسها الجميل فتناثر شعرها الأشقر الذهبي فوق كتفيها كطائر يحوم فوق شجر الحور وقالت: ولكني معك أحسست بشيء خاص.. من النظرة الأولى أحسست أنك مختلف عن الجميع.. في طفولتي كنت أحب قراءة تلك القصص عن الفارس الذي لا يأتي إلا من الشرق .. حيث الفروسية والأصالة والأخلاق النبيلة .. وعشت عمري كله أحلم بذلك الفارس الذي سيأتي راكباً جواده ليختطفني فأشعر معه بالأمان والطمأنينة .. ولكن في بلادي ليس هناك فرسان يركبون جيادا .. الجميع يركبون السيارات الفارهة والطائرات العابرة للقارات، ويبدون لي كأنهم عاجزون حتى عن السير فوق أقدامهم لفرط هشاشتهم .. إنهم يبدون في نظري أشخاصا متحركين بلا روح أو مشاعر ليسوا هم الفرسان الذين حلمت بهم على الإطلاق.

بدهشة تساءل : وأنا .. كنت الفارس الذي تنتظرينه ؟.

ــ قالت في توكيد :

يكفي أنك عرضت حياتك للخطر من أجلي دون حتى أن تعرفني .. ففي ليل بلادي هناك قاعدة ذهبية تقول « لا تقاوم لصًّا »، فما بالك بشخص يتدخل ضد مجموعة من المجرمين مدافعا عن حياة فتاة يجهل حتى من تكون، معرضا نفسه لخطر الموت .. لقد شاهدني قبلك أكثر من شاب من أبناء وطني واللصوص يقتادونني بعيدا لسرقتي وإيذائي، فلم يجرؤ أحدهم على التدخل برغم استنجادي لهم .. فهل أنا على خطأ في أن أدعوك بفارسي أيها الشرقي الوسيم، وأن أُحبك دون كل الآخرين ؟.

غمغم محسن في ارتباك : لا تظنيني فارساً مقداماً .. أنا حتى هذه اللحظة لا أدري كيف اندفعت مُخاطراً لإنقاذ حياتك، ولا كيف جاءتني تلك القوة على مصارعة أربعة مجرمين مسلحين وهزيمتهم.

مدت أصبعها الرقيقة تغلق شفتيه قائلة : لا تتواضع.

ــ هذه هي الحقيقة.

ــ الحقيقة أنا وحدي أعرفها.. فدعني أعيشها كما أراها.

وجاءت الأم بالشاي، وبعد أن انتهيا منه أقبل عدد من الجيران مهنئين بعودة محسن، وقد راحت النساء تراقبن « ليزا » في فضول وحسد وهم يتفحصون كل تفاصيلها. وضايقها ذلك فنهضت معتذرة إلى حجرتها، وقالت الأم لابنها هامسة : اذهب إلى خطيبتك وأخبرها أنه لا يصح أن تترك الضيوف وتذهب إلى حجرتها.

ولكن « ليزا » قالت لمحسن: لقد جاءوا لتهنئتك أنت بالعودة وليس لتهنئتي أنا.

ـــ ولكنك خطيبتي ومن واجبك الترحيب بهم.

ـــ ولكن ليس عليّ أن أتحمل نظراتهم الفضولية إليّ .. إنني لست قرداً في سيرك ليتفرجوا عليّ بمثل تلك الطريقة.

ونهضت قائلة : لا أظن أننا جئنا لبلدك لكي تسجنني في منزلك وأصبح فرجة للآخرين .. لقد حدثتني كثيرا عن آثار بلادك، ولطالما تمنيت أن أزورها وقد حانت الفرصة .. فما رأيك ؟.

أجابها بتسليم برغم إرهاقه وعدم إغماض جفنه الليلة السابقة لحظة واحدة : .

ــ كما تشائين .. بماذا تحبين أن نبدأ ؟.

قالت « ليزا » وعيناها تتألقان بتعبيرات شتّى :

ــ سنبدأ بالأهرام العظيمة .. لقد كانت دائما تترافق في أحلامي مع الفارس الوسيم .. كان هذا الفارس يأخذني دائما إلى تلك الأهرامات لنرتاح في ظلها ونلقي برؤوسنا إلى أحجارها، ونحن نشعر أن العالم كله ملك أيدينا .. وقد ساق القدر إليّ فارسي الشرقي الوسيم .. ولم يعد باقياً من أحلامي غير أن يصطحبني ذلك الفارس إلى الأهرامات حتى تكتمل كل أحلامي.

« امرأة مطلقة »

توقفت سيارة التاكسي أمام مدخل الشارع الضيق .. وغادرته امرأة هزيلة البدن ناحلة القد في ملابس داكنة، وقد عقصت شعرها بشريط أسود كأنه راية حداد منكسة الأطراف .. وقد تقصفت أطراف الشعر الأسود الفاحم فبدا نافراً مبعثراً خشناً. كان وجه المرأة شاحباً وبياض بشرته أقرب إلى صقيع وجوه الأموات .. والعينان العسليتان تفيضان بتلال من الأحزان قد جسدتها هالات سوداء متكاثفة تحت العينين، كأنها خطوط مؤكدة للأحزان أضافت إلى عمر صاحبتهما سنوات.

وفي خطوات هزيلة متعثرة قطعت المرأة مدخل الشارع نحو باب المنزل الذي تقصده، وقد سارت بمحاذاة الرصيف الضيق قرب الحوائط كأنها تريد أن تختفي عن عيون

الجيران فلا تلمحها. منذ عام كامل لم تطأ ذلك المكان .. وكان أهون عليها الموت من أن تعود مرة أخرى على تلك الصورة ..

لقد قاومت كثيرا حتى لم تعد لها قدرة على المقاومة.

وأخرجت منديلاً مسحت به دموعاً كادت تطفر من عينيها .. وأعادت المنديل إلى جيبها وواصلت سيرها الذليل منكسة الرأس نحو مدخل المنزل القريب الذي تضيء مدخله لمبة شاحبة برغم النهار.

ثم توقفت المرأة أمام المنزل وشهقت غير مصدقة.

كانت المفاجأة غير متوقعة على الإطلاق .. مفاجأة مذهلة.

وحدّقت المرأة الهزيلة البدن في محسن غير مصدقة .. وبقيت عيناها متسعتين على آخرهما، ووجهها الذابل كسته حمرة ذهول بالغة أعادت إليه بعضا من نضارة الحياة التي فقدها ..

وغمغمت رغما عنها كأنها ترغب في أن تتأكد مما تراه عينيها : محسن ؟.

وتمتم محسن في ذهول طاغ : أماني ؟.

وعاد يتأملها وذهوله يتصاعد لذروته. كان للمرأة نفس الوجه ونفس الملامح والقوام لمحبوبته وفاتنته التي تغرَّب بسببها.

ولكن برغم الملامح والقوام فقد كانت تلك الواقفة أمامه تبدو شيئا آخر مختلفاً ..

مثل تفاحة ناضجة أطبق عليها العطب، أو زهرة خريفية أذبلها العطش.

تنبهت أماني للفتاة الأجنبية الفاتنة التي كانت تحيط ذراع محسن بذراعها، والدبلة الذهبية في أصبع يدها اليمنى .. وفي نفس المكان في يد محسن.

على الفور أدركت العلاقة التي تربط الاثنين .. وفي لحظة خاطفة إنطفأ البريق في عينيها وعاود بدنها انحناءته كأنما ناء بأحمال فجائية لا مثيل لها . تذكرت فجأة أنها لم تعد له .. ويستحيل أن تكون له بعد كل ما جرى.

جرت مسرعة تختفي عن عينيه، تصعد السلالم متعثرة وهي تحاول أن تكتم نشيجها وبكاءها ..

وبقي محسن مكانه لحظة كالمشلول وعقله لا يستطيع استيعاب ما قد مر به منذ لحظة. وأفاق على « ليزا » تسأله في صوت مكتوم المشاعر : من هي ؟

أفاق من شلله .. التفت إلى خطيبته وتلاقت عيناه بعينيها .. ملامحها كانت باردة تنتظر منه إجابة صريحة.

قال دون تخاذل : كانت هذه الفتاة خطيبتي يوماً ما .. لأجلها سافرت إلى بلادك من أجل المال الذي يجمعنا معاً ولكنها خانتني وتزوجت بآخر، فتركت في قلبي جراحا قاسية.

بنفس الصوت البارد قالت له : لم تخبرني عنها من قبل.

ــ كنت أريد أن أنساها وأُخرجها من حياتي .. كانت تجربة فاشلة مؤلمة أردت نسيانها.

قالت وعيناها تجوسان في ملامحه : .

ــ ولكن ما أراه في عينيك الآن يقول أنك لم تنسها.

أجابها في صدق:

ــ ما ترينه في عيني هو الدهشة البالغة .. كيف تحولت

أماني إلى تلك الصورة البائسة، كأنها امرأة ذابلة في الخمسين من عمرها، وقد كانت من قبل بهجة للعين ومثالاً للجمال .. ألا يحق لي أن أندهش وأنا أراها على تلك الصورة، كأنما تعاقبها السماء على غدرها وخيانتها ؟.

أرخت « ليزا » أهدابها الرشيقة وقالت تحسم النقاش : ما يهمني هو أنك نسيتها.

فضغط على أصابعها الهشة برقة قائلاً : لم يعد في قلبي سواك.

افتر ثغرها عن ابتسامة وضَّاءة وأشرقت عيناها بشموس الدنيا.

وقضيا يوما جميلا .. انبهرت « ليزا » بالأهرامات وشهقت لروعتها.. وراحت تتفحصها وتدور حولها مثل طفلة تكتشف عالما مثيرا.

قالت لمحسن في انفعال طاغ : لم أكن أظن أن الأهرامات بمثل تلك الضخامة والروعة .. ترى كيف بناها المصريون القدامى ؟.

أجابها وعيناه تشردان في الأفق كأنما تستعيد ذكرى

أخرى : كثير من الأسرار تظل في قلوب أصحابها .. ويستحيل على الآخرين اكتشافها مهما حاولوا.

قالت « ليزا » في وله: أشعر كأن هذه الأهرامات هي بيتي وقدري.. وأن حياتي لم تبدأ إلا تلك اللحظة التي وقعت عيناي على ذلك الصرح العظيم.. وأنت معي.

وطوقته بذراعيها في سعادة بالغة وقد كادت تقبّله، فدفعها محسن في حدة مباغتة وهو يصيح بها : هل جننت .. نحن هنا لسنا في « أمريكا » .

شحب وجهها وقالت له : لقد أردت أن اعبّر لك عن مشاعري السعيدة فقط.

قال محاولاً السيطرة على انفعالاته : ألا يكون التعبير عن السعادة إلا بالقبلات .. ثم إننا لم نتزوج بعد ولا يحق لنا حتى التماسك بالأيدي.

وأشاح بوجهه الشاحب بعيدا وهو يضيف : هذه هي تقاليدنا .. فتذكريها جيداً ما دمت قد اخترت الحياة في هذه البلاد.

عضت « ليزا » على شفتيها بقسوة .. قالت وكأنها موشكة على البكاء : سامحني .. أنا آسفة .. من حقك أن تطالبني باحترام عاداتكم وتقاليدكم.. لكن لا تنسَ أنني غريبة عن هذه البلاد ولم يمض عليَّ فيها يوم كامل لتقسو عليّ.

وتلألأت عيناها بالدموع .. وارتجف محسن .. أحس بخشونته وقسوته عليها .. من الظلم أن يعاملها بتلك الطريقة متناسياً أنها قادمة من عالم آخر مختلف. وأن حبها له قد دفعها لأن تتبعه إلى نهاية العالم تاركة كل أسباب سعادتها خلفها.

أحس محسن أن سبب عصبيته وثورته المفاجئة هو رؤيته لأماني في الصباح .. تلك الرؤية التي أثارت مشاعره وأهاجت شجونه وجعلته يتذكر أياما وذكريات جاهد لكي ينساها إلى الأبد. ولم يكن هناك ذنب لتلك المخلوقة الجميلة الرقيقة التي اختارته دون الآخرين ليكون محبوبها وزوجها .. فيصب عليها جسام غضبه وثورته لسبب لا ذنب لها فيه.

قال معتذرا : أنا آسف .. لا أدري ما الذي أصابني .. أرجوك سامحيني.

قالت ودموعها لا تزال تسقط رغماً عنها: أنا لا أغضب منك أبداً.

ــ إذن لماذا تبكين ؟.

نكست وجهها في خجل قائلة : إنني غاضبة من نفسي لأني أغضبتك .. وقد كان عليّ أن أراعي مشاعرك ومشاعر الآخرين حولنا .. عليّ دائما أن أتذكر أن لكم تقاليد مختلفة يجب عليّ أن أقدرها وأحترمها.

أدرك محسن كم هي رقيقة جميلة تلك المحبوبة الشقراء كعصفور كناري، رقيقة كنسمة ربيعية، صافية كسحابة صيف. وقال وهو يحتضن كفيها بأصابعه : أرجوك لا تبكي مرة أُخرى .. دموعك تؤلمني.

سألته في لهفة: هل تحبني ؟.

أجابها في شوق : أحبك .. أحبك .. أحبك .. ألست واثقة من حبي لك حتى الآن ؟.

أغمضت عينيها ووجهها يحتضن الأهرامات العظيمة

كأنها قبلتها وبوصلتها .. همست في شجن : أعرف أنك تحبني .. أنا متأكدة من ذلك ثقتي من أنني ما زلت أحيا .. ولكني أريدك أن تكرر تلك الكلمة الساحرة .. كررها .. أرجوك .. كررها ونحن في حضرة تلك الأهرامات العظيمة الشامخة لتكون شاهداً على حبنا.

عاد يكرر كلمة أحبك عشرات المرات وهما متماسكان الأيدي ..

وأحست « ليزا » أن كل أحلامها تتحقق في تلك اللحظة .. وأن العالم كله قد صار لا يتسع لفرحتها وسعادتها.

أما محسن فبقدر السعادة التي كانت تشمله تلك اللحظة، بقدر الغضب الذي كان يطوقه في اللحظة ذاتها عندما تذكر وجه أماني الشاحب الغارق في الأحزان .. وتساءل في غضب وحدَّة، ترى لماذا اختارت تلك اللحظة بالذات لتعود فيها إلى منزل أمها، كأنها تعمّدت ذلك لتنكأ جراحه وأوجاعه.

أم أن القدر هو الذي اختار تلك اللحظة لعودتها لهدف مجهول ؟

« النافذة المغلقة »

امتدت ذراعا أماني تفتح نافذة حجرتها المغطاة بطبقة كثيفة من التراب.

فعلت ذلك دون وعي أو تفكير .. كان قلبها السجين يرغب أن ينطلق إلى الفضاء الواسع الرحيب، كأنما لا يعوقه غير تلك النافذة المغلقة. النافذة التي ظلت مغلقة منذ هجرت ذلك المنزل زوجة لرجل آخر. يوم زواجها حسدها الكثيرون بسبب ذلك العريس الشاب الثري .. ونقم عليها البعض الآخر واتهمها بالخيانة والغدر بمن أحبته أو تظاهرت بحبه. ولكن الجميع لم يروا غير فستان زفافها الأبيض والسيارة الفاخرة التي انتظرتها بأسفل وأخذتها إلى مسكنها الجديد الأنيق المطل على نهر النيل في الحي الراقي.

يومها جاهدت لتكبت دموعها وتطلق لأحزانها العنان

.. كان السر مكتوما في قلبها لا يمكنها أن تبوح به لأحد حتى لأمها. كان الموت أهون لديها من فضح هذا السر.

ساومها عباس.. وأدركت هشاشة موقفها وضعفها.. لم يكن من سبيل آخر .. وباعت نفسها بوثيقة زواج ورضيت بلعنات البعض وحسد الآخرين.

وعاشت تكتم دموعها في صدرها كل ذلك الوقت بقلب مكموم. الآن فقط يمكنها أن تُطلق تلك الدموع والآهات .. تبكي وتبكي .. تلك اللحظة فقط تشعر بحريتها المسلوبة تعود إليها.

عادت إليها حريتها ولكن بعد أن خسرت كل شيء. فما ضاع لا يمكن تعويضه أبداً. خسرت أجمل ما في حياتها. حبها الطاهر النقي الذي أقسمت على الإخلاص له في صدق لا يعلمه غير الله. محسن، ذلك الحلم الجميل في حياتها، حب المراهقة الطاهر، حبها الأول والأخير الذي نقش تفاصيله في قلبها وسرى في دمائها، وأقسمت ألا تختار رجلا لها غيره.

ولكن منذ متى كان القدر يتركنا لنمارس بحرية الاختيار بإرادتنا الكاملة ؟.

ماذا يقول عنها محسن الآن .. خائنة .. كاذبة .. اختارت رجلا آخر بسبب ماله ؟ هل يكرهها .. هل ينقم عليها .. لا يطيق رؤيتها .. إن نظرته لها ذلك الصباح أوحت بما هو أقسى.

الآن صار ينتمي لأنثى أخرى .. أجمل منها وأرق ألف مرة .. ولعلها تمتلك من المال ما لم تحلم هي به أبداً.

تماما كما صارت هي في لحظة مفاجئة ملكاً لرجل آخر إرادته هي السيد والآمر وكلمته لا ترد. ومعه عانت وقاست وصمتت. كتمت آلامها وأحزانها ولم تعد تتحمل الأمر حتى انها أوشكت على الموت. وهي تبذل مجهوداً جباراً متظاهرة بالسعادة وهي تعيش مع شخص غريب عنها إلا من ورقة زواج. كان أقرب إلى وحش آدمي بلا اخلاقيات. ماذا يقول عنها محسن الآن ؟.

ولم تحس أنها ضعيفة بمثل ذلك القدر إلا تلك اللحظة .. فانفجرت في بكاء مرير. وأقبلت أمها متعثرة مغضنة

الوجه وهي تقول : كفى بكاء يا ابنتي .. ما حدث قد حدث وهي إرادة الله.

وفي لهجة لا تخلو من قسوة أكملت : أنت قد اخترت هذا الشاب زوجاً لك بملء إرادتك، وقد حذرتك منه، فالخادم إذا صار سيداً لا ينسى أبداً أنه كان خادماً يوما ما .. حذرتك من أن أمواله لن تسعدك وأنك لن تجدي معه غير الشقاء ولكنك لم تنصتي إلي .. وها قد عدت مطلقة في الخامسة والعشرين من عمرك فلا تشكي أو تلومي غير نفسك.

أخفت أماني وجهها بيديها منهارة .. كادت تصرخ باكية : آه يا أمي .. كفى عن ذبحي وطعني بكلماتك .. لو أنك تعرفين الحقيقة .. لو أن الجميع يعرفون لماذا اتخذت هذا القرار، ولكني لن أقدر على البوح بتلك الحقيقة أبداً .. أبداً .. لقد اخترت التضحية وسأتحمل نارها وعذابها حتى أموت، مهما سخر مني الناس أو نقموا عليّ.

وعندما لمحت الأم النافذة المفتوحة اكتسى وجهها بغضب حاد، وهتفت في صوت كهشيم النيران : هذه النافذة ظلت مغلقة منذ زواجك .. وستظل مغلقة إلى أن تموتي،

أم أنك تريدين أن يقول الناس عنك، أنك بعد طلاقك عدت لترمي شباكك على خطيبك القديم ؟.

وأغلقت الأم النافذة بعنف .. فأحست أماني أن مسام رئتيها قد أغلقت، وأنها توشك على الاختناق إلى حد الموت.

* * *

ردد محسن دون أن تعبر عيناه عن أي مشاعر : طُلقت ؟.

أجابته سمية أخته بابتسامة ساخرة : كل سكان الشارع يتحدثون عن ذلك .. البعض صعد إليها لمواساتها .. والبعض الآخر اكتفى بالشماتة .. ويقولون أنها رفضت أن تقابل أحداً وأنها أغلقت حجرتها على نفسها للبكاء.

وفي لهجة قاسية أكملت : ولكن البكاء لا يقتل أشد الناس قساوة وخيانة.

غمغم غير مصدق : قدر عجيب..

ــ نحن نصنع أقدارنا بأنفسنا فلا تتهم القدر .. أنت تغربت وكافحت وشقيت فكافأك الله عن ذلك بفتاة جميلة رائعة ثرية.. أما هي فاختارت المال حتى لو أتى من خلال

زوج كان خادما لها ولأبيها من قبل، وكان معروفا عنه البلطجة والغباء واستعداده للانحراف بسبب المال .. فخرجت مطرودة من جنته ومطلقة بعد عام واحد من الزواج. ورمقته أخته بنظرة شك وتساءلت : هل أنت حزين لما جرى لها ؟.

ـــ بل أنا أرثي لها.

ـــ إنها لا تستحق إلا احتقارك.

ـــ لو احتقرتها الآن لكنت أدين مشاعري السابقة نحوها وألوثها.. لا يمكننا أن نحتقر من أحببنا يوما ما.. وإلا لكنا نحتقر أنفسنا أيضا.

قالت في حسم : عليك أن تتنبه لمستقبلك منذ الآن ولا تفكر في الماضي.

اكتسى وجه محسن بسحابة قلق وقال : بعد أن أنهينا أنا و « ليزا » جولتنا في الأهرامات خطر لي أن أصطحبها لمشاهدة بعض المساكن الحديثة لننتقي منها شقة نعيش فيها في منطقة الأهرامات، فليزا كانت تخطط للسكن في هذا المكان من قبل.

ــ وما المشكلة في ذلك ؟.

ــ لم أكن أظن أن أسعار الشقق بمثل ذلك الارتفاع .. إن كل ما ادخرته من عملي بالكاد يكفي لشراء شقة جيدة وتأثيثها .. فمن أين سأبدأ مشروعي للشركة التي أنوي إنشاءها ؟.

ــ اذن لا داعي للشقة .. يمكنك أن تقيم بالمال الذي أحضرته شركة الاستيراد والتصدير، أما أنت و « ليـزا » فتسكنان مع أمي في هذه الشقة إلى أن تتحسن أحوالكما المالية وتتمكنا من شراء شقة.

تطلع محسن إلى أخته بقلق وسألها : ترى هل سترضى « ليزا » بذلك ؟.

ــ لو كانت تحبك فسترضى حتما.

وفوجئت « ليزا » باقتراح محسن .. وغمغمت غيـر مصدقة : هل تريدني أن أعيش في هذا المكان الضيق الكئيب ؟.

أجابها في هدوء : لا يمكنني شراء شقة الآن فالمال الذي عدت به لن يكفي للشقة والشركة.

قالت وعيناها تتألقان بتصميم حاد : أنت تعرف أمنيتي من قبل المجيء إلى هنا.. أن أعيش وأسكن بجوار الأهرامات.

ــ علينا أن نتحمل بعض الوقت لتحقيق كل أمنياتنا .. لقد اخترنا الطريق الصعب وعلينا أن نعتمد على أنفسنا.

شحب وجهها وقالت : ولكن .. هذه الشقة ضيقة جداً وحجراتها أشبه بالزنزانات .. وتلك الكلاب التي تنبح بأسفل، والجيران الذين يحدقون فيّ كلما وقعت عيونهم عليّ ؟.

قطّب محسن حاجبيه في شيء من الضيق وقال لها : كنت أظن أن حبك لي سيجعلك تتحملين أي مضايقات في سبيل أن نبقى معا.

نكست وجهها فتناثر شعرها الجميل حول وجنتيها فأخفى الدموع التي ملأت عينيها، عندما تذكرت حجرات قصر والدها الواسعة وحديقته المترامية الأطراف والطيور المغردة في أشجارها .. همست في صوت مخنوق : أنت على حق .. سأفعل كل ما يرضيك لأني أحبك.

ونهضت متباطئة إلى حجرتها حتى لا يرى دموعها، وعيناها تنبضان بوميض خاص.

وأسند محسن رأسه إلى وسادته دون أن تغمض عيناه .. وهو يعلم أنه على بعد أمتار منه ترقد امرأة أخرى كان مقدرا لهما أن يكونا معا حتى نهاية عمرهما.

أمرأة أقسمت أن تنتظره وتصون حبه مهما طال غيابه .. فلم تأت الجراح إلا منها.

فهل ستفعل به « ليزا » الشيء نفسه .. برغم كل ذلك الحب الذي يجمعهما معا ؟.

إنه يرى بريق التحدي في عينيها برغم حبها وخضوعها .. وهو يعلم أنها إذا قررت شيئا فعلته مهما واجهت من عقبات في سبيل ذلك .. يشعر أنها اتخذت قراراً يجهله وأنها لن تبوح به له إلا في الوقت المناسب كعادتها معه.

فهل كان قرارها .. أن تخرج من حياته إلى الأبد .. وأن تعود إلى عالمها الصاخب .. وثراء أبيها ؟.

وكانت الأيام القادمة كفيلة بأن تكشف له قرارها.

« دفتر المذكرات »

في أيام قليلة استطاع محسن شراء شقة صغيرة بوسط العاصمة ليفتتحها مقراً لشركته.

ولم يكن يظن أن التعقيدات الروتينية ستأخذ منه بعد ذلك أسابيع طويلة ليتمكن من إنشاء الشركة والحصول على ترخيص مزاولة نشاطها.

وأخيرا تمت كل الإجراءات بعد أن أنفق محسن كل ما عاد به من مال في شراء مقر الشركة وتأثيثها وإنهاء إجراءات إنشائها.

وخلال تلك الفترة انشغل كثيرا عن « ليزا » .. ومن ناحيتها فإنها لم تحاول مضايقته بأسئلة كثيرة .. كان يعود كل يوم منهكا متعبا في المساء المتأخر فلا يراها غير دقائق قليلة قبل أن تستأذنه للنوم .. وفي تلك اللحظات

القليلة كان يسألها عن أحوالها، فتجيبه إجابة مختصرة وتعود إلى شرودها وصمتها. وعندما تتواجه عيونهما لم يكن يقرأ في عينيها شيئاً، كأنهما صفحة بيضاء خالية من المشاعر، لا ندم، لا حزن، ولا حتى عتاب، كأنها أسدلت فوق تعبيراتها ستاراً من الجمود حتى لا يقرأ ما يجول بذهنها.

وزاد إحساسه بأنها تخطط لشيء ما لا يدريه. وشعر أنه يفتقدها كثيرا ولكن ظروفه لم تكن تسمح له بقضاء وقت أطول معها. وأخبرته أخته أن خطيبته صارت تقضي أغلب أوقاتها في حجرتها وقد أغلقت بابها على نفسها، أو تجلس أمام التليفزيون تشاهد برامجه في سكون، ودون فهم لما يقال أمامها.

وقال محسن لاخته : حاولي أن تصطحبيها في نزهة خارج المنزل .. أو إلى أي أماكن سياحية أو حتى في رحلة إلى « الأقصر » أو « أسوان ».

فأجابته أخته : لقد عرضت عليها ذلك بالفعل ولكنها رفضته وقالت أن أي مكان ستذهب إليه بدونك لن يجلب السرور إلى قلبها.

ـ لقد انشغلت عنها بعض الوقت في إنشاء الشركة وتأسيسها .. وقريبا سوف تستقر الأمور وينتظم العمل وأفرغ لها، وتبدأ الأيام السعيدة.

ولكن العمل لم ينتظم أبدا في الشركة .. لأنه لم يكن هناك أي عمل.

فبعد أيام قليلة من افتتاح الشركة اكتشف محسن أن انعدام خبرته في الأمور التجارية يشكل عائقاً أمام نجاحه .. ولم يكن لديه المال لتوظيف موظفين ذوي خبرة لمساعدته.

اكتشف أيضاً أن الأمر ليس مجرد إنشاء شركة فقط، بل يجب توافر قدر كبير من رأس المال لتسيير أمور الشركة وتخطي مصاعب البداية. ذلك كله بالإضافة إلى حالة الكساد المسيطرة على السوق، والتي جعلت كثيراً من الشركات الكبيرة تغلق أبوابها لقلة العمل والأرباح.

وأحس محسن أنه يغرق في دوامة .. وأنه اختار المشروع الفاشل فأنفق فيه كل رأسماله القليل، فصار مثل قصبة هشة في مهب الريح.

وكان ما يضايقه أكثر هو صمت « ليزا ». ذلك الصمت الذي يحيره ويشقيه. كان يتمنى لو أنها سألته عن عمله، عن المصاعب التي تواجهه، عن احتمالات الفشل التي يكاد أن يسقط في هاويتها.

ولكنها ظلت على صمتها وسكونها وعيناها لا تفصحان عن أي مشاعر..

وغمغم لنفسه متألماً : لم أكن أدري أنها بمثل ذلك القدر من القوة والإرادة لتنطوي على نفسها دون أنة ألم أو شكوى احتجاج .. وأن تخفي سرها وقرارها بمثل ذلك القدر من العناد.

وذات مساء قالت له أمه : ماذا تنتظر يا محسن .. لقد استقرت الأمور وأنشأت الشركة فمتى ستتزوج من « ليزا » ؟.

تنبه محسن مندهشاً الى أنه لانشغاله في مشاكل العمل قد نسي أمر الزواج تماماً .. فالتفت إلى أمه في حيرة قائلاً : إنني لا أدري ما هو رأي « ليزا » في ذلك .. وهل يناسبها الوقت ؟.

فأجابته الأم : لقد فاتحتها أختك فوافقت .. ما رأيك أن يكون الزواج الخميس القادم وأن يكون الحفل عائليا صغيراً لن ندعو فيه أحداً غريباً ؟.

ـ كما تشائين يا أمي.

وتزوجا في الحجرة الضيقة نفسها. حجرة الضيوف التي صارت هي كل عالمهما.

وأحس محسن أن « ليزا » تحاول بذل أقصى جهدها لتبدو سعيدة أمامه. ولكنه لم يكن بالساذج لكي يجهل أن أحلامها في ليلة زفاف رائعة ومسكن فاخر كانت تأكل فرحتها ولا تترك لها إلا البقايا. وفي ليلة زفافهما قال لها: أعدك أن أحقق لك كل أحلامك فلا تتعجلي.. سيكون لنا كل ما حلمنا به، وسيأتي في الوقت المناسب.

فدفنت رأسها بين ذراعيه كأنها تهرب من العالم كله حولها .. وأنها تعرف انه لن يتمكن من تحقيق أحلامها أبداً.

ولم يكن قد اكتمل شهران على افتتاح الشركة والحال تسير من سيء إلى أسوأ، عندما عاد محسن مبكراً إلى بيته .. واكتشف أن أخته أفلحت أخيراً في إقناع « ليزا »

بالخروج في نزهة لمشاهدة فيلم أمريكي حديث تعرضه سينما « مترو ».

ووجد ضلفة الدولاب في حجرتها مفتوحة .. الضلفة الخاصة بليزا والتي لم تفتحها أمامه أبداً من قبل.

وبداخل الضلفة المرتبة المنسقة وجد عدداً من الكتب لا يدري متى اشترتها « ليزا » .. كانت كلها تتكلم عن حضارة الشرق وتعقد مقارنة بينها وبين الغرب.

وبدا من الواضح أن صاحبتها تعاني صراعاً حاداً في نفس الاتجاه.

وكانت هناك بعض الورود اليابسة في ركن الضلفة، ولم يكن هناك من شك في أن أخته قد نسيت أو تناست رجاءه بأن تشتري لخطيبته بعض الورود النضرة كل صباح لأنها اعتادت على ذلك.

ولكن كيف كان لأخته أن تدرك قيمة الورد في حياة فتاة مثل « ليزا » قادمة من عالم مختلف .. ولعلها رأت أن شراء الورد إهدار للمال، فهو لا يؤكل ولا يشرب.

وأدرك كم الوحدة وقسوة الحرمان الذي أجبر « ليزا »

على أن تعيشه معه .. وهي التي عاشت لا يُرد لها طلب ولا رغبة.

وجلس حزينا ودفن وجهه بين كفيه وفكر في مرارة، ترى هل كان قراره بالعودة إلى مصر قراراً خاطئاً تسرّع فيه ؟.

وعندما أفاق بعد لحظات لفت انتباهه دفتر أنيق بلون الورد موضوع بجوار صف الكتب ..

امتدت يده رغماً عنه لتتصفح الدفتر الأنيق فاكتشف الحقيقة بعد لحظة .. كان دفتر مذكراتها ...

وتصاعدت أنفاس محسن لاهثة وبداخله رغبتان تتصارعان في وحشية. الأولى تدفعه لكشف ما كتبته خطيبته وما يدور في ذهنها. والثانية تطالبه باحترام أسرارها.

وانتصرت الرغبة الأولى.

وبأصابع محمومة راح يقلب أوراق الدفتر الأنيق .. وقرأ.

« أحب هذا الشرقي إلى حد التقديس .. أعشق فيه رجولته ووسامته وخشيته عليّ.. كأني آلهة الحب وهو

المعبود الوحيد في محرابي .. ولكني أكره في نفس الوقت توجيهاته وأوامره ومعاملته لي كطفلة لا تعي .. وإصراره على أن يتولى كل شؤوني وأن يتخذ قراراتي بنفسه .. إنه دائماً يحدثني عن تقاليد قومه وعاداتهم ويطالبني باحترامها .. ولم يفكر لحظة واحدة أن لي تقاليد وعادات مختلفة تعودت أن احترمها .. ولكني لأني أحبه أنقاد له ».

وفي صفحة أخرى كتبت : « لم أكف عن البكاء الليلة السابقة .. لم أتخيل لحظة واحدة أن يقسو عليّ إلى ذلك الحد ويوافق أن أعيش بين جدران حجرة كالعلبة .. ووسط ضجيج الباعة ونباح الكلاب ورائحة الطعام مختلطة برائحة الأقذار وبقايا القمامة بأسفل النافذة .. إنه يقتل حلمي وأخشى ألا يتحقق ذلك الحلم أبداً .. وأن أعيش في بلاد الأهرامات غريبة عنها .. ولكن لأني أحبه .. أرضى بذلك كله ولا أغضبه ». وبعد عدة صفحات قرأ : « أراه يعود كل يوم من عمله مرهقاً متعباً .. أخشى أن أسأله عما يعانيه وإلا اعتبر ذلك تطفلاً مني .. ففي تلك البلاد لا رأي للزوجة ولا لها حتى حق السؤال .. وأنا أشعر أني

أدور في حلقة جهنمية .. ولكن لأني أحبه .. أتحمّل كل شيء في سبيل ذلك ».

وتوقف طويلا عند تاريخ زفافهما.. وقرأ في لهفة : « بالأمس كانت ليلة زفافنا .. هذه الليلة التي حلمت بها كل عمري .. حلمت بمجوهرات وفستان رائع وقصر فاخر أقيم به .. وآلاف المدعوين يحيطون بي .. يباركون ويهنئون وأنا وسطهم نجمة متألقة .. وزوجي لا يأتي إلا في عربة تجرها الخيول مغطاة بالحرير .. فيحملني فارسي إليها كما لو كان هو أميري وأنا كل دنياه.

ولكن .. جاءت ليلة زفافي بما لم أفكر فيه أبداً .. فكأنها كانت ليلة مأتم لا ليلة زفاف، وأنا أرى أحلامي كلها ليست إلا أحلاماً وأوهاماً .. وحاولت أن أخفي عن محسن كل مشاعري وأن أبدو سعيدة وبذلت في ذلك مجهوداً جباراً .. وبعد نومه ظللت طوال الليل أبكي .. ولكن لأني أحبه لا أشكو أبداً ».

وتوقف دفتر المذكرات على تاريخ أسبوع مضى ...

وفي تلك الصفحة عرف محسن القرار الذي اتخذته « ليزا » .. وانكشف له سرها.

* * *

لم يعد في مقلتي أماني مزيد من الدموع ..

جفت ينابيع الحزن في جفنيها وتحولت مشاعرها إلى صحراء جافة لا حياة فيها ..

يومان انقضيا دون أن تغادر حجرتها .. وهي جالسة صامتة شاردة، عيناها تحدقان في الفراغ الضيق الكئيب.. دون طعام أو شراب.

خطابات محسن إليها موضوعة فوق فراشها .. وخطه الجميل اعتاد أن يبدأ كل رسائله بعبارة « إلى حبيبة قلبي وحبي الوحيد أماني ».

تساءلت لحظة، ترى ألا يزال يحتفظ بخطاباتها إليه ويشم عبير عطرها الذي كانت تسكبه فوقها.

ولكن لماذا يحتفظ بخطاباتها وهي في نظره ليست سوى خائنة نقضت العهد وخانت الوعد ؟.

لعله مزق خطاباتها إليه .. أو أحرقها .. أو داسها بقدميه.

وهي لا يمكن أن تلومه أبداً .. لأنه لا يعرف الحقيقة.

ولكن خطاباته كلها محفوظة لديها .. لم تفرط فيها حتى بعد زواجها .. وكلمات الحب فيها هي الوحيدة التي ترطّب شيئا من هجير أحزانها.

تأخذها تلك الكلمات بعيداً بعيداً. تعود بها إلى سنوات مضت وذكريات هائنة .. تتخيله في النافذة المقابلة لحجرتها يلوّح لها ويبتسم، أو عند ناصية الشارع ينتظرها ليهمس لها بشيء ما. ثم وهو يضع دبلة الخطوبة في اصبعها وفرحة الدنيا لا تسعهما.

وبعدها وهي تودعه عند سفره وهو يطلب منها الوعد بانتظاره مهما طال الغياب.

ثم ساعي البريد يدق بابها ليسلمها خطاباته .. تتلهف عليها .. تقبلها .. تبكي وهي تقرأ معاناته في غربته ووحدته .. بعدها لم تكن تتناول طعاماً لأيام .. وكيف يهنأ لها طعام وهو هناك يبعد عنها آلاف الأميال، لا يجد حتى ثمن طعامه ؟.

لا يغمض لها جفن .. فكيف تنام وهو هناك تفصله

عنها شطآن وخلجان .. لا يجد مكاناً مريحاً ولا آمناً لنومه ؟.

وأقسمت لنفسها أن تعوّضه عن كل ذلك حينما يعود .. أن تعيش بين أصابعه فتكون أطوع إليه من أنفاسه. ولكن ..

ويقفز وجه عباس في الصورة .. وتمتلئ عيناها بدموع مرة شديدة الملوحة ..

ثم يطمس كل ذلك ظلام قاحل .. وتعود المرارة تقبض على قلبها وتكاد توقف نبضها.

فقد صار محسن زوجاً لأخرى .. يعيشان معا على مسافة أمتار منها .. فيا لقسوة القدر.

طرقت الأم باب الحجرة .. تنبهت أماني من شرودها الحزين.

مسحت دموعها ولملمت الخطابات .. أعادتها إلى المكان الذي احتواها من قبل في دولابها.

فتحت لأمها الباب .. خطت الأم إلى الداخل .. راقبت

وجه ابنتها الذابل اليابس وقالت لها : هل ستظلين تبكين إلى أن يصيبك العمى ؟.

لم ترد على أمها .. واصلت الأم في قسوة : ابكي ما تشائين، ولكن تذكري شيئاً هاماً وهو أننا في حاجة إلى طعام وشراب.

أحست أماني بسكين ينغرز في قلبها .. وانحرفت عيناها إلى أصابعها .. باعت كل خواتمها الذهبية ولم يبق منها شيء لتبيعه.

واصلت الأم قائلة : لم يترك لنا أبوك أرثاً ولا مالاً .. ولكي نعيش يجب أن نحصل على المال .. والمال لا يأتي إلا بالعمل.

ارتجفت شفتا أماني وهمست في إعياء : سأعمل يا أمي فلا تقلقي .. من الغد سوف ابحث عن عمل لنعيش منه.

أجابتها الأم : لقد تحدثت مع المهندس ممدوح صاحب مصنع النسيج في الشارع المجاور لنا، وشرحت له ظروفنا فأبدى استعداده لأن تعملي لديه كعاملة في المصنع بأجر مائة جنيه في الشهر.

كادت أماني تتهاوى عندما سمعت الاسم .. جرح جديد يضاف إلى جراحها، وطعنة جديدة تستقر في قلبها الملكوم..

المهندس ممدوح الذي تقدم يوماً طالباً يدها فرفضته .. رفضته لأنها لم تكن ترى في العالم كله زوجا لها غير محسن.

يومها أقسم ممدوح غاضبا أن يتزوج من هي أفضل منها مائة مرة بعد أن أعتبر رفضها له بمثابة جرح لمشاعره، كأنما جاء يخوض معركة لا زواجا، وهو الذي ترمي عشرات الفتيات شباكهن عليه للزواج منه لثرائه ووسامته. واقترن بفتاة رائعة الجمال تمتلك الكثير من المزايا.

من الغد تصبح عاملة لدى ممدوح .. وتمتد يداها في نهاية الشهر لتقبض منه ما تعيش به هي وأمها ..

لماذا يا أمي اخترت ممدوحا بالذات .. وما أقسى هذه الحياة، التي لا تختار لأقدارنا، إلا كل ما يؤلمنا ؟

« أنقذني يا أبي »

اندفعت « ليزا » إلى الداخل صارخة في فرح طاغ : محسن .. أين أنت ؟.

وكان هو جالساً في حجرته على طرف فراشه يحدق في الفراغ. اقتربت منه « ليزا » بفرحة مشتعلة ممسكة بخطاب في يدها تسلمته منذ لحظات، هتفت : انظر يا محسن .. لقد أرسل لي والدي خطاباً من أمريكا .. إنه يقول أنه وافق على زواجنا ويتمنى أن نعود إلى أمريكا ونعيش معه في قصره.

رفع إليها محسن عينين غاضبتين. مارس قدرا هائلا من السيطرة على نفسه وهو يقول لها : أنت أرسلت إليه تشكين له من المصاعب التي تجدينها هنا .. وتطلبين منه أن يبارك زواجنا وتوسلت إليه .. أليس كذلك ؟.

شحب وجهها وماتت فرحتها، سألته في صوت مرتعش كيف عرفت ؟.

أجابها وأسنانه تصطك : تلك المذكرات التي كنت تكتبينها وتركتها داخل ضلفة دولابك المفتوحة.

استشاط وجهها بغضب حاد، هتفت به : من أعطاك الحق في أن تفتش في أوراقي وأشيائي الخاصة .. من سمح لك بذلك ؟.

نهض واقفا، أمسكها من ذراعيها في عنف صائحاً : في بلادنا لا خصوصيات بين الأزواج .. هذه البلاد التي تعيشين فيها تمنحني الحق أن أفتش في كل أسرارك دون إستئذان لأني زوجك.

عضت شفتيها في قسوة حتى كادت تدميها .. وأكمل محسن بنفس اللهجة الحادة : كان عليك أن تخبريني بما تنوينه قبل أن تفعلي.

تلألأت الدموع في عينيها وهي تقول : أردت مساعدتك دون أن أجرح مشاعرك.

صاح بها : ماذا تدرين أنت عن مشاعري .. ترى ماذا

سيقول والدك الآن، سوف يظن كعادته أنني أوحيت لك بأن ترسلي له خطاباً لتستسمحيه حتى نعود إلى جنته مرة أخرى، وأن سفرنا إلى مصر كان مجرد تهديد من جانبنا لإخضاعه ليوافق على زواجنا لأننا لا نستطيع أن نعيش دون ماله.

غمغمت في ضعف : لا يا محسن .. والدي لا يفكر بتلك الطريقة.

هاجمها في عنف : والدك لا يفكر إلا بمنطق المال، وخطابك إليه لا شك قد أكد له ظنونه بأني لم أتزوجك إلا لأجل ماله .. وأنا لا أرضى أبداً أن ينظر لي حماي على أنني صائد مال لا ضمير له.

رفعت وجهها إليه .. كانت الدموع في عينيها ساخنة مشتعلة، قالت له : لا تدفن رأسك في الرمال وتتجاهل الحقائق كما يفعل البعض في بلادكم .. هل تظن أنني لا أدري بالمصاعب التي تواجهها في شركتك .. لقد أخبرني زوج أختك بكل شيء .. إن الأمور معك متعثرة وقريبا سوف تغلق هذه الشركة التي أنشأتها .. وبعدها

ستضطر للبحث عن أي عمل.. وسنقضي بقية عمرنا في ذلك المكان، وسنتحول إلى آلات تتفتت وتتكسر تروسها من أجل الحصول على الطعام فقط . فهل هذه هي أحلامنا التي جئنا لنحققها في بلادك ؟.

ساخراً قال : من المؤسف أن أحلامك تدور دائما في فلك مال أبيك.

قالت : إنه أبي ومن حقي أن اتمتع بماله وأحقق به كل أحلامي .. ليس في ذلك عيب، وأنت زوجي ومن حقك أن تشاركني مالي، حتى لو كان هو مال أبي.

هتف بها : إنني لن أحقق أحلامي إلا بمالي أنا .. لا بمال الآخرين.

واندفع غاضبا من الحجرة تاركا « ليزا » تحدق في الفراغ. وتهاوت على الفراش منتحبة وهي تشعر أنها تسقط في دوامة لا قرار لها.

هبط السلالم في غضب حاد. عاش في الأيام الماضية صراعا حادا بعد أن عرف حقيقة ما فعلته ليزا من دفتر مذكراتها. ولم يعد يستطيع أن يخفي معرفته الحقيقة أكثر

من ذلك. إنها تريده تابعا لها ولأبيها. وهو لن يوافق على ذلك أبداً. حتى لو اضطر للتسول للإنفاق على نفسه وزوجته.

ولم يدر بنفسه إلا وتوازنه يختل ويسقط فوق السلالم بعد أن وطأ إحدى الدرجات المكسورة دون أن يتنبه لها .. وتدحرج ليسقط في مدخل المنزل متألما بشدة من كاحله الذي .إلتوى بعنف..

واندفع إليه شبح قريب كان يستعد لدخول المنزل في نفس اللحظة.

كانت هي أماني التي وقفت مكانها مشلولة لا تدري ما تفعل. وجاهد محسن لكي يكتم آلامه وينهض ولكنه ما كاد يفعل ذلك حتى صرخ من الألم، فاندفعت إليه أماني في لهفة وذعر هاتفة : محسن .. ماذا حدث لك ؟.

أجابها متألماً وهو يتحاشى النظر إليها : لقد سقطت بسبب الدرجة المكسورة، ويبدو أن قدمي إلتّوت بعنف.

هتفت في ألم أشد : سلامتك ألف سلامة .. هل أذهب لآتي لك بطبيب ؟.

قال يغالب آلامه : لا .. إنه مجرد التواء بسيط.

وتحامل على الحائط لينهض، فمدت إليه يدها ليستند عليها .. فنظر إليها في تقطيب وتجهم، وتجاهل اليد الممدودة إليه محاولاً النهوض بنفسه، ولكنه صرخ متألماً عندما لامس كاحله الملتوي الأرض، فاندفعت إليه إماني تسنده باكية لتمنعه من السقوط على الأرض. ورمقها محسن في دهشة .. فأدارت وجهها لتهرب من نظراته مغمغمة بصوت يقطر دموعاً : ليت قدمي هي التي إلتوت بدلاً منك.

ومسحت دموعها بكفها قائلة : استند علي .. سأصعد بك لأعلى.

ولا يدري هو لماذا أحس بالراحة والاطمئنان إلى كلماتها .. خيّل إليه أن الأعوام قد انطوت سريعا للوراء .. وتذكر يوم دهمته سيارة مسرعة في الطريق فأصابته في قدمه، وهرعت إليه أماني باكية ملتاعة تتمنى أن تكون الإصابة قد لحقتها بدلاً منه .. كأنما لم تمض كل تلك الأعوام .. بكل مرارتها وأحزانها ..

استند إليها رغماً عنه .. ولكن صيحات الألم التي أطلقها

بعثت بأمه التي هبطت السلالم مسرعة وقد أدركت ما حدث.. وما إن وقع بصرها على أماني حتى اكتست عيناها ببريق غاضب حاد جعل أماني تنكمش في ذعر وخوف.

وأزاحتها الأم في عنف قائلة : دعيه، إنه ليس في حاجة إلى مساعدتك أيتها الخائنة.

ترنحت أماني إلى الوراء .. كانت الكلمة أقسى من طلقة الرصاص .. ارتعد كل جزء فيها كأنها تواجه صقيعاً مميتاً ..

غمغمت في صوت مشلول : إنني لست خائنة .. وأقسم لكم .. لست خائنة .. وانطلقت تعدو وكل جزء فيها يبكي في حرقة.

والتفت محسن إلى أمه في ألم قائلاً : لماذا جرحتها يا أمي ؟.

فأجابته في قسوة : وهل مثل هذه الخائنة تؤثر فيها الكلمات مهما كانت.. أنظر إليها.. إنها ممثلة بارعة،

ومن يراها على تلك الحال يظن أنها شهيدة .. فيا لقدرة بعض النساء على الخداع.

وهرعت « ليزا » هابطة السلم ودموعها تسبقها .. وأسندت ذراع محسن الأخرى فوق كتفها وهي تقول له : يا حبيبي .. إنني السبب في كل ما حدث لك .. أرجوك سامحني.

أغمض محسن عينيه متألماً .. وكلمات أماني تطن في أذنيه بدوي مؤلم : إني لست خائنة وأقسم لكم.

« سؤال بلا إجابة »

بقي محسن أياما راقدا في فراشه برباط ضاغط حول كاحله الذي أوشك على أن يعود لحالته العادية. وكان في حاجة إلى ذلك الوقت لكي يفكر في هدوء ودون انفعال .. كانت « ليزا » على حق في أشياء كثيرة.

لقد أغلق شركته واكتشف أنه لن يكون رجل أعمال أبداً دون خبرة ومال كثير .. ومهما كان نوع العمل الذي سيمارسه بعد ذلك فلن يكفي راتبه لتحقيق حياة رغدة له ولزوجته. كان من الظلم أن يقسو عليها إلى ذلك الحد. ويفرض عليها نوعا من الحرمان الممزوج بالقسوة وهي التي تركت وطنها وأسرتها لأجله.

ولعلها كانت على حق في أن تطلب مساعدة أبيها

.. وعليه أن يتقبل الأمور دون عصبية. ودون أن يدفن رأسه في الرمال كما قالت « ليزا ».

إن المستقبل ينتظره هناك . في « أمريكا » .. و « ليزا » هي مستقبله .. حتى لو كانت نقطة البداية هي مال والدها.

وهكذا اتخذ قراره رغما عنه .. فلم يكن هناك بديل آخر.

وفي داخله كان ثمة جزء لا يزال يرفض بإصرار ويتهمه بالانتهازية .. ولكنه أخرس ذلك الصوت في قسوة .. تماما كما أخرس عن أذنيه صوت أماني الباكي المتوسل وهي تقول : إنني لست خائنة .. وأقسم لكم.

وعندما عرفت « ليزا » بقراره صرخت من الفرح .. وراحت تقفز في داخل الشقة كطفل سعيد صائحة: أخيراً سنعود لبلادي .. وستبدأ الأيام السعيدة.

فقال لها حزينا : ظننت أنك أحببت بلادنا وأنك سعيدة بالإقامة فيها.

فقالت دون مواربة : لقد احتملت أشياء كثيرة في هذه

البلاد بسبب حبي لك .. أما الآن فلم يعد هناك سبب لأن أتحمّل المزيد منها.

فنظر إليها محسن في صمت وحزن، لم يكن يتخيل أن هناك شيئا في وطنه يمكن أن تكرهه « ليزا » .. مهما كانت بشاعة هذا الشيء .. ولكنه كان وطنه هو لا وطنها هي.

وأفاق على صوت صراخ يأتي من الشقة المجاورة .. شقة والدة أماني ..

صراخ لامرأة تستغيث في ذعر وتطلب المساعدة. وقفز محسن من فراشه برغم قدمه التي ما زالت في حاجة إلى بعض الراحة. وأسرعت الأم تسد عليه الطريق صائحة : لا شأن لنا بتلك المرأة وابنتها وما يجري لهما.

فهتف بها : دعيني يا أمي .. من المؤكد أنهما تتعرضان لخطر عظيم.

واندفع يفتح باب شقته .. وطرق باب شقة أماني بعنف فلم يجاوبه غير صوت الصرخات الحادة المنبعثة من داخلها

.. وبعض الجيران قد تجمعوا على السلم لا يجرؤون على التصرف.

واندفع محسن يحطم الباب بكتفه، فانفتح الباب المتهالك بضربة واحدة .. وعلى الفور انكشف له بالداخل شخص عملاق له ملامح فظة حادة قد راح ينهال ضربا على أماني ويجذبها من شعرها، والأم تحاول الدفاع عن ابنتها دون فائدة، فراحت تطلق الصرخات الحادة المستغيثة.

كان العملاق هو عباس .. زوج أماني الذي طُلقت منه. وبرغم بذلته الأنيقة وساعته الذهبية فقد بدا سوقياً وقحاً، وقد انهال على زوجته السابقة صفعا وركلا في وحشية صائحا بها : سوف تعودين لي أيتها الشريدة وتكونين زوجتي مرة أخرى إلى أن تموتي.

فأجابته بأنين مكتوم وصراخ مبحوح : الموت عندي أهون من ذلك.

اندفع محسن دون وعي نحو عباس، جذبه في عنف صائحاً به : أيها المجرم الوغد .. كيف تضرب امرأة وحيدة ضعيفة ؟.

التفت عباس إلى محسن وقد اشتعلت عيناه ناراً .. وهتف في صوت كالزئير : إنه أنت .. لم يأت أحد للدفاع عنها غيرك .. إن هذا يثبت أن ظنوني كانت في محلها.

ــ أي ظنون أيها المجرم ؟.

زمجر عباس في وحشية : إنها طلقت مني لتعود إليك .. لقد كانت تعيش معي بجسدها فقط وكنت أحس أن قلبها ومشاعرها في مكان آخر .. معك أنت أيها اللص .. فقد تزوجتها أنا ولكنها لم تنكس أبداً .. لقد كنت تشاركني مشاعرها وقلبها رغما عني حتى وأنت في بلاد بعيدة .. ولطالما تمنيت أن أنتقم منك .. والآن قد حان أوان الانتقام.

أدرك محسن أنه سيخوض معركة غير متكافئة .. فالتقط ساقا خشبية لكرسي محطم وتسلح بها.

واندفع عباس إليه مزمجراً، وتحمل الضربة العنيفة التي هوى بها محسن فوق ذراعه، ثم التقط الساق الخشبية وطوحها بعيداً، وهوى برأسه في ضربة هائلة فوق جبهة محسن فترنح لها وشعر أن الدنيا تغيم عن عينيه .. وعاجله

عباس بضربة قوية في معدته تقوس لها محسن .. ثم أرسلته ضربة في فكه إلى ركن الجدار بأسنان محطمة تنبثق منها الدماء. والتقط عباس ساق الكرسي وهو يزأر لكي يهوى بها فوق محسن، بضربة لو أصابته لقتلته في الحال، ولكن أماني اندفعت نحوه وصرخت به في جنون : أيها الوحش. وأنشبت أظافرها في وجهه فأسالت دماءه، فلطمها عباس على وجهها وألقاها على الأرض بوجه دامٍ، وصرخ فيها : في المرة القادمة سآتي لأعيدك إلى عصمتي .. فإن رفضت قتلتك أنت ومن يتصدى للدفاع عنك.

وغادر الشقة وسط صرخات والدة محسن التي اندفعت إلى ابنها في جزع هاتفة : ولدي .. ماذا جرى لك ؟.

فأجابها محسن بتأوه متألم وهو يشعر أن كل جزء فيه قد تحطم .. واصطدمت عيناه بعيني « ليزا » التي وقفت في مدخل الشقة تحدق فيه صامتة ذاهلة شاحبة الوجه كأنها لا تصدق ما حدث له.

وتحركت ببطء.. لا لتتجه إليه.. بل لتعود إلى حجرتها وتغلق بابها عليها.

وبدا واضحاً لمحسن أنها ومنذ تلك اللحظة، لم تعد تحسبه الفارس الوسيم القادر على مواجهة الأشرار وهزيمتهم مهما كانت قوتهم.

وزحفت أماني نحوه برغم آلامها .. وهمست في ضعف تسأله باكية : هل اصابك هذا الوحش بمكروه ؟.

صرخت فيها أمه : ابتعدي عنه أيتها الذئبة المتوحشة.

ولكن محسن هتف في أمه متحاملاً على آلامه : أرجوك اتركيها يا أمي .. يكفيها ما هي فيه من آلام .. لقد أنقذتني من الموت على يدي هذا الوحش.

ورفع أصابعه بمشقة ليوقف نزيف أنفه .. وكانت هي راقدة بجواره فوق ركبتيها بفم تسيل منه الدماء وجبهة متورمة وشعر منزوع. وقالت باكية وهي تتأمله : ليتك تركته يقتلني ليريحني من عذابي.

سألها في إشفاق : هل كان يعاملك بمثل تلك الطريقة الوحشية ؟.

أجابته ودموعها تختلط بالدماء المنثالة من فمها : كان يريد أن يحصل على حبي رغماً عني .. كان يضربني

كل ليلة إلى أن تسيل دمائي ولا يرحم توسلاتي وضعفي.

قال متألما : ظننتك تزوجتيه عن حب .. أو رغبة في ماله.

قالت منتحبة : وهل عرفتني من قبل أبيع مشاعري بسبب المال .. كثيرون تقدموا لي طالبين يدي كانوا أكثر ثراء فلم أقبلهم وأنت تعرف ذلك.

وفي مرارة أكملت وهي تهرب بعينيها بعيداً : أما عن الحب، فكيف أحب رجلاً اكتشفت منذ اللحظة الأولى لزواجي منه أنه مدمن للمخدرات ويتاجر فيها أيضاً .. وأنها سبب ثروته المفاجئة .. لقد ساومته كثيراً لكي يطلقني .. ولولا أنني هددته بكشف حقيقته للشرطة لما أطلق سراحي بعد عام من العذاب والتعذيب، تحملت فيه كل صنوف الإهانة.

وأجهشت بالبكاء وأخفت وجهها بيديها.

وحدّق فيها محسن مندهشا وبدت له بعض الأمور الغامضة التي تكشفت مرة واحدة.

ولكن بقي سؤال وحيد لا إجابة له، فهتف يسألها وقلبه

يدق عنيفاً : إذن لماذا تزوجت هذا المجرم إن كنت لم تحبيه أو تطمعي في ماله ؟.

حدقت فيه أماني بوجه يرتعد وعينين زائغتين .. كان كل جزء فيها ينتفض. وكان السؤال أشبه بصاعقة سرت في جسدها فجأة.

واندفعت تجري من أمامه إلى حجرتها. وأغلقت بابها في عنف قبل أن تتشنج في بكاء مرير.

وظل السؤال المطروح بلا إجابة.

« رحيل »

ألقت « ليزا » بتذكرتي السفر أمام محسن وهي تقول له : سنسافر غداً .. وقد حجزت مقعدين على أول طائرة.

واجهها في تجهم بوجه شاحب تحيطه الضمادات قائلاً : كان عليك على الأقل استشارتي في ذلك.

أجابته في جمود : ظننت أنني تمكنت من إقناعك بالسفر قبل ذلك.

قال محتداً: لا أقبل أن تحدثيني بمثل تلك اللهجة.. أنا هنا ما زالت لي الكلمة الأخيرة.

واجهته بعينين باردتين ونظرة ساخرة مرتسمة على وجهها كان من الصعب إخفاؤها.

واجهها محسن بفم مزموم قائلاً : أعرف أن الأمور

تغيرت كثيرا بالنسبة لك منذ اكتشفت حقيقة فارسك الوسيم .. أخبرتك أن ذلك الفارس لم يكن غير وهم وخيال فطلبت مني أن أتركك تعيشين في الأوهام والأحلام.

قالت وهي تعطيه ظهرها : ليس لذلك دخل في قراري بتعجيل سفرنا.

ـ إذن هل يمكنني أن أسألك عن السبب في ذلك ؟.

استدارت نحوه متنمرة، كانت تلهث وهي تقول في غضب : أما زلت تجهل السبب حقاً أم أنك تتجاهل .. هل ظننتني سأحيا في مثل ذلك المكان الضيق الخانق ووسط عيون بلهاء تترصدني وتراقبني كما لو كنت حيواناً عجيباً قادماً من كوكب آخر .. هل ظننتني سأبقى بقية عمري أعيش في ذلك الحي القذر المليء ببقايا القمامة وطفح المجاري والسلالم المكسورة التي لم يفكر أحد في إصلاحها كل تلك السنوات .. وتلك الكلاب القذرة التي يبدو عددها وكأنها أكثر من سكان الشارع أنفسهم.

وعلا صوتها إلى حد الصراخ وهي تقول : لقد كاد كلب ضال أن يعقرني أمس فاضطررت للدفاع عن نفسي

بأقرب شيء وصلت إليه يداي .. هل تتصور أنني أستطيع أن أقاوم طويلا في مثل تلك الظروف ؟.

قال في هدوء : ظننت أن الحب سيمنحك القوة للمقاومة .. ولو لبعض الوقت.

اقتربت منه بملامح ثائرة وقالت : إن مفهوم الحب لديك ولدى الآخرين يختلف في تلك البلاد .. إنكم باسم الحب تطالبون المرأة أن تمنح كل شيء .. حريتها وحياتها، وحتى عدد أنفاسها تحصونها عليها وتكادون لا تمنحونها حتى حرية الشكوى كأنها جارية.

أجابها بنفس اللهجة الهادئة : لم يسلبك أحد حريتك أو يطالبك بأن تكوني جارية.

صرخت فيه : بل أحسست أنني ضائعة تائهة سجينة في تلك البلاد.

ــ لكل بلاد تقاليدها .. وقد وعدتني باحترامها.

ــ ليست تقاليدكم غير مجموعة من القيود تمنعون بها أنفسكم من حق التمتع بالحياة .. كل شيء عيب

أو ممنوع وغير مسموح به .. فأي حرية هذه التي تتحدث عنها ؟.

ــ ليست الحرية أن نفعل الخطأ وأن نحطم كل القيود حتى التي يفرضها علينا الدين والتقاليد.

ــ الخطأ هو أن يعيش الإنسان مكبلاً بالقيود في انتظار النهاية .. أنا أريد أن أعيش وأتمتع في حياتي ولا يهمني ما يحدث بعد ذلك حتى لو أنني ذهبت إلى الجحيم.

قال في مرارة : سمعتك مرة تقولين أن حلم حياتك كان العيش بجوار الأهرام.. فكيف تطلبين مغادرة بلادنا بتلك السرعة ؟.

قالت ساخرة : كان ذلك غباء مني .. ليست الأهرامات سوى بناء من الأحجار لا هدف له أو معنى .. تماماً مثل كثير من تصرفاتكم .. أنتم تتشدقون بالأهرامات وتعيشون على الماضي الجميل دون أن تحاولوا إصلاح حاضركم .. إذا كنتم تباهون بأجدادكم وحضارتهم وبأنكم أحفاد من أنجب هذه الحضارة، فما الذي تركتموه لأطفالكم ليتباهوا به ؟.

قال لها ذاهلاً: لم أكن أدري أنك كرهت. بلادنا، بمثل ذلك القدر.

في تحدٍّ واجهته : هل الحقيقة في عرفكم كراهية ؟.

في هدوء قال لها : من الواضح أن عالمينا لم يتلاقيا .. وأن حبنا فشل في تذويب كل الفوارق والاختلافات بيننا.

قالت : الحب لا يعيش في ذلك الجو الخانق .. هناك في بلادنا يمكننا أن نعيش ونتمتع ونعوض ما فاتنا .. سوف تكون لنا ليلة زفاف أخرى رائعة يتحدث عنها الجميع .. وسنحقق كل أحلامنا دون معاناة.

ــ كانت كل أحلامي أن تكوني معي.

ــ وسنكون معا .. هناك في بلادي.

ــ لا .. بل ستكونين غريبة عني .. لأنك فشلت أن تكوني معي هنا .. في بلادي ..

ــ أنت فشلت في أن تنتمي إليّ.. فكيف أنتمي إليك ؟.

مالت عليه تتحسس جبهته المضمدة بالشاش الطبي وتلمس شعره الأسود القصير، قالت : أنت نسك جربت

الحياة هنا وفشلت .. فلماذا تدافع عن وطنك بمثل تلك الحرارة ؟.

أجابها في يقين : لأنه وطني.

وتواجها لحظة .. أحس الاثنان أن هوة ضخمة صارت تفصل بينهما .. كشفت التجربة عن اختلافات كثيرة وعوائق لا حد لها.

أدرك محسن أن الحب الذي كانا يتوهمان أنهما يعيشانه كان أقل قوة مما قدر. ففي أحيان كثيرة تكون حاجة الإنسان إلى الحب دافعاً إلى توهم وقوعه واكتشف تلك اللحظة أنهما كانا يعيشان لحظات حب زائفة. هو أراد بها أن يعوض حبا حقيقيا انقلب إلى جرح في قلبه. وهي أرادته كفارس أحلام لا وجود له في الواقع. بقيا صامتين حتى الصباح. جهزت « ليزا » حقائبها واستعدت للرحيل. التقطت تذكرة سفرها وحدها وقالت له : عندما تقرر العودة إلى « أمريكا » أخبرني وسأكون بانتظارك .. وهناك سنتمتع بكل شيء .. المال والثراء والحرية والحياة السعيدة. وخطت تغادر المكان دون أن تلقي نظرة واحدة إلى الخلف.

أوقفها محسن بنداء أخير. توقفت. اقترب منها. قال لها: في بلادنا تطيع الزوجة زوجها .. وأنا أستطيع أن أمنعك من السفر لو شئت .. فهذا حق لي في هذه البلاد.

وواجهته في تحدٍّ .. قالت له : حاول فألجأ إلى سفارة بلادي .. ولا شك أنك أدرى بنفوذ أبي .. حتى لو كان على بعد آلاف الأميال من هنا.

ـــ إن سافرت الآن وغادرت هذا المكان .. فلن تكوني لي بعد ذلك.

واجهته في صلابة قائلة : سأسافر .. وستتبعني .. لأنك لن تجد أخرى تمنحك ما سوف أمنحه لك من مال ومستقبل .. لهذا أنا واثقة أنك ستتبعني حتى لو كنت تكرهني.

وخطت « ليزا » إلى باب الشقة .. وقبل أن تغلق بابها جاء صوت محسن يقول لها : أنت طالق .. طالق .. طالق.

« وانكشف السر »

أجهشت أماني في بكاء مرير، واندفعت تغادر المصنع وهي لا تكاد ترى أمامها. لم تعد تحتمل أكثر مما احتملت من سخرية زميلاتها هناك، وإيماءاتهم نحوها وإشاراتهم عليها .. والألسنة التي تصفها بالغدر والخيانة والجشع في تلذذ وقسوة. وعندما ذهبت باكية تشكو لممدوح أشار إليها بيده في ازدراء قائلاً : لا وقت لديّ لسماع هذه التفاهات .. إن جئت للشكوى مرة أخرى من زميلاتك طردتك من المصنع.

وخيّل إليها أن ما تفعله عاملات المصنع كان بتحريض من ممدوح .. فالبعض في سبيل خدش يصيب كرامتهم، يكونون على استعداد لذبح الآخرين، وممدوح ما زال يعتبر رفضها له يوماً ما، خطأ يجب أن تدفع ثمنه غالياً.

غادرت المصنع منهارة .. وصعدت سلالم منزلها باكية.

ولم تحتمل صحتها الضعيفة وبدنها الهزيل أكثر مما احتملت .. فانهارت أمام باب شقتها فاقدة الوعي، واصطدم وجهها بالأرض في عنف وانفجرت الدماء من أنفها وفي نزيف حاد وسط صرخات أمها الملتاعة.

وعندما أفاقت في المساء طالعتها المرئيات غائمة مشوشة. تنبهت إلى أنها ترقد في حجرة بمستشفى خاص شديد النظافة. وهناك إبرة مغروزة في ذراعها تمتد أنبوبتها إلى كيس دم قاني اللون .. وأمها قد جلست بجانبها تنتحب وتبكي.

وما ان لمحتها أمها تفيق حتى هتفت في فرحة طاغية : حمداً لله يا ابنتي .. ظننا أنك لن تستعيدي وعيك أبداً.

تساءلت في إعياء بالغ : منذ متى وأنا أرقد هنا ؟.

جففت الأم دموعها قائلة : منذ يومين .. ولولا أن بادر محسن بنقلك إلى هذا المستشفى الخاص ودفع كل التكاليف لما كان أحد يعرف مصيرك غير الله.

غمغمت ذاهلة : محسن ؟.

ـ لقد نزفت كثيرا من الدماء .. وكنت في حاجة إلى نقل دم عاجل .. ولم تكن فصيلتك متوفرة بأي مستشفى بسبب ندرتها. ولحسن الحظ اكتشفنا أن فصيلة محسن هي نفس فصيلتك فبادر بالتبرع بدمه مرتين لإنقاذ حياتك.

ارتعدت شفتا أماني .. تعلق بصرها بكيس الدم الذي يسري منه السائل القاني إلى ذراعها .. كأنه يمنحها الحياة.

دماء محسن تسري في عروقها لتُبقي على حياتها .. أي لعبة غريبة يمارسها معها القدر ؟.

قالت باكية : لماذا لم تتركوني أنزف حتى الموت يا أمي .. لماذا تضيفون المزيد من الجراح والأحزان إلى قلبي الجريح ؟.

قالت الأم لائمة : أتقولين هذا بدلاً من أن تشكري هذا الشاب النبيل على مساعدته لك برغم كل ما فعلته به ؟.

في اللحظة نفسها ظهر محسن في مدخل الحجرة .. وجهه لا ينبئ بأي تعبير ولا حتى بالإشفاق.

عضت أماني شفتيها بقسوة أشد.. ها هو قد جاء يقبض ثمن مروءته .. ولو بالتشفي منها.

نهضت الأم مرحبة بمحسن. تركت له مقعدها وغادرت الحجرة. وتوقف محسن أمامها. تعلقت عيناه بكيس الدم ثم انحدرت حتى وجهها الشاحب الهزيل.

لمحت الإشفاق في عينيه لأول مرة.

همس يسألها في رقة : كيف حالك ؟.

قالت في أسى ودموعها تغرقها : ما زلت أعيش.

ــ كأنك كنت تتمنين الموت ؟.

ــ وما قيمة الحياة إذا كان كل من يحيطون بالإنسان يصمونه بالجرم والخيانة دون أي شفقة أو رحمة.

قال في جمود : على الإنسان أن يتحمل نتيجة أخطائه، ولا يطلب من الآخرين أن يكونوا ملائكة.

كان من الواضح أنه يعنيها بعبارته .. تركت دموعها تسيل في صمت دون رد .. وتحركت أصابع محسن في توتر فلمحت يده اليسرى خالية من أي قيد ذهبي. قال لها دون مقدمات : كان زواجنا خطأ فطلقتها وعادت إلى بلادها.. ظننت أنني أحبها واكتشفت ذلك متأخراً

.. يبدو أن الحب الحقيقي لا وجود له في هذا العالم القاسي المليء بالغش والخداع، وأنت أدرى بذلك دون شك.

قالت في مرارة : لماذا أنقذت حياتي وأنت تكرهني إلى هذا الحد ؟.

أجابها في حزن : لا يمكنني أن أكرهك .. لأن من أحب ذات يوم لا يكره من أحبّ .. فقط أقول لك أن مشاعري لك تتراوح بين الشفقة والرثاء .. وما فعلته معك كان ابتغاء للثواب فقط.

عضت شفتيها مرة أخرى حتى كادت تدميهما .. كانت كلماته أكثر قسوة من آلامها.

وقال محسن دون أن تدل ملامحه على شيء خاص: لقد سألتك ذات مرة سؤالاً لم تجيبي عليه.

وواجهها بعينين تغليان بالمشاعر كبركان وهو يضيف : لماذا تزوجت عباس ؟

لم يعد لديها قدرة على الاحتمال أكثر مما احتملت.. لقد حاولت كثيراً إخفاء السر ودفعت

الثمن غالياً. ولكنها في تلك اللحظة كان تتحمل آلاما مضاعفة أكثر مما احتملت من قبل .. وذلك الإنسان الذي أحبته بصدق وإخلاص لا يزال يعاملها كخائنة وناقضة للعهد، وعندما تبرع بدمائه ليمنحها البقاء على قيد الحياة .. فعل ذلك فقط رثاء واشفاقا عليها..

قالت منهارة : هل تريد أن تعرف الحقيقة ؟.

أجابها : نعم.

قالت في مرارة : لقد أقسمت بيني وبين نفسي على كتمانها .. ولكن لا طاقة لي بالمحافظة على هذا القسم أكثر من ذلك.

ومدت أصابع مرتعشة هزيلة تخرج ورقة مطوية متهرئة من قميصها .. مدتها إليه فالتقطها في دهشة دون أن يفهم قصدها.

راقبته بعينين حمراوين من كثرة البكاء .. فتح محسن الورقة وقرأها ثم بدا عليه الذهول ..

انحرفت عيناه تجاه أماني وهتف بها: لماذا لم تخبريني بذلك من قبل ؟.

قالت باكية : وهل كنت تريدني أن أفضح أبي وأترك الناس يتهمونه بالسرقة وخيانة الأمانة بعد موته ؟.

قال محسن ذاهلاً : هذه الورقة .. كانت ثمنا لزواجك من عباس ؟.

ــ لقد كان عباس يتمنى الزواج مني منذ زمن بعيد وأدرك أن ذلك لن يتحقق له وهو يعمل شبه خادم لأبي .. فتركه وعمل في تجارة المخدرات حتى اثرى منها .. وعندما مرض أبي وباع دكانه وأنفق ثمنه على العلاج، احتاج إلى المال، فتقدم إليه عباس يعرض عليه مالاً على سبيل الاقتراض مقابل أن يوقع له على إيصال أمانة، ولم يكن أمام أبي غير ذلك وهو لا يدري هدف عباس الحقيقي. وبعد وفاة أبي جاء عباس يطالب برد المال الذي اقترضه أبي .. أو يضطر للتشهير به وبأنه استولى على المال الذي تركه أمانة لديه ويطردنا من مسكننا فلا يكون لي ولأمي مأوى غير الشارع.

قال لها ذاهلاً: ولهذا تزوجته ؟.

ــ إنقاذاً لسمعة أبي بعد وفاته وحماية لأمي من التشرد

في نهاية عمرها .. إنها لا تعرف حتى تلك الحقيقة، وتظن أنني تزوجت عباس طمعاً في ماله وتقسو عليّ بسبب ذلك، وأنا أتحمل كل شيء ولا أفضح أبي، حتى أمام أمي.

دارت الدنيا أمام عيني محسن. تكشفت له الحقيقة مذهلة وتلك الإنسانة التي وصمها بالخيانة كانت براءتها ناصعة وتضحيتها لا مثيل لها. صاح كالمجنون: لماذا لم تخبريني بالحقيقة وترسلي لي بها في أمريكا ؟.

قالت في مرارة : وماذا كان يمكنك أن تفعل وأنت تبعد عني آلاف الأميال، ولا مال معك تنقذني به .. لم يكن أمامي مفر من التضحية بنفسي فداء لسمعة أبي وإنقاذاً لأمي..

جز على أسنانه غضباً وقال : وتركت نفسك لهذا الشقاء مع ذلك المجرم .. وعيون الناس وألسنتهم التي تحاصرك بالاتهامات والشماتة والسخرية.

قالت باكية : كان الموت عندي أهون من كشف هذا السر .. ولكن قلبي لم يعد يحتمل مزيداً من الجراح والآلام.

وأغمضت عينيها ودموعها تسيل منها كنهر يفيض بمائه.

وأحس محسن بعينيه تلتهبان وتمتلئان بالدموع، وعض شفتيه قهرا وندما .. لكم كان قاسيا على تلك الإنسانة النبيلة التي لم تخطئ أو تغش .. وضحت بسعادتها في نبل لم يعد له وجود في ذلك العالم.

أمسك بأصابع يديها يقبلها ودموعه تسيل فوق الكف النحيل .. فتحت عينيها وهمست في إعياء تقول : أنا لا أستحق ذلك منك.

قال في شجن : سأقضي عمري كله أحاول أن أعوضك عما لاقيته من أحزان وجراح.

قالت في ألم : لا تربط مصيرك بامرأة لم يعد لديها ما تمنحه.

ــ بل لديك الكثير واكثر مما تظنين .. ذلك القلب النبيل الذي لم يتلوث. الآن فقط أدركت لماذا جعلنا القدر نعود في نفس اللحظة إلى نفس المكان وكل منا يظن أن طريقه قد صار مختلفاً تماماً. إن القدر الذي قسا علينا عاد وجمعنا في لحظة واحدة بطريقة لا تصدق من أجل أن نعوض سعادتنا.. سوف نتزوج فنبدأ حياتنا من جديد.

توهجت ملامح أماني عندما تسللت إلى أذنيها الكلمة الساحرة. أحست أنها تعود للحياة من جديد.

قال محسن مؤكداً: أقسم أن أجعل عباس يدفع ثمن فعلته، وأن تقبض عليه الشرطة، أما نحن فسوف نبدأ حياتنا بأقل الإمكانيات.. ولن نفترق مرة أخرى أو يدفعنا المال لتأجيل أحلامنا وتدميرها.. المال لا يصنع السعادة أبداً.. نحن الذين نصنعها بحبنا وتضحيتنا.. ولن تخرجي من هذه الغرفة إلا وأنت عروس لي .. فبعد أن امتزجت دماؤنا معا .. ستمتزج حياتنا ومصيرنا إلى الأبد.

وانحنى محسن ثانية يطبع قبلة فوق الأصابع النحيلة الهزيلة .. والقلب ينبض بسعادة غابت عنه سنوات طويلة.

السر المجهول

تأليف: مجدي صابر

هاجر محسن إلى أمريكا ليأتي بالمال اللازم ليتزوج من حبيبته وخطيبته أماني.. لكنها فسخت خطبتها منه وتزوجت بشخص آخر..

وعاش محسن جراح الغربة والخديعة، ثم عاد ومعه حسناء أمريكية تمتلك الملايين.. ولكن القلب كان لا يزال يعاني من خيانة المحبوبة الأولى، ولا يدري السر في خيانتها.

وأخيراً تكتشف السر.. فتبدلت أشياء كثيرة واختلفت مصائر الأبطال الثلاثة.

دار الجيل
بيروت